من علّم عبد الناصر شرب السجائر؟

عُمر طاهر

مكتبة آدم
t.me/AdamLibrary

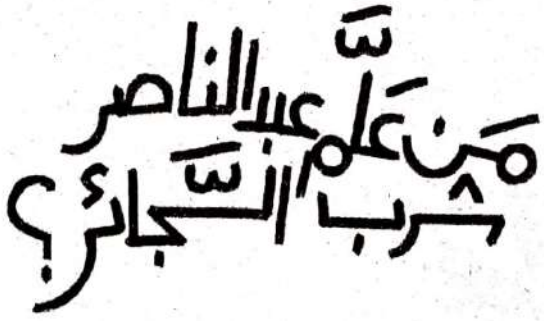

t.me/AdamLibrary

عُمر طاهر

مَن علّم عبد الناصر شرب السجائر؟

الكرمة

t.me/AdamLibrary

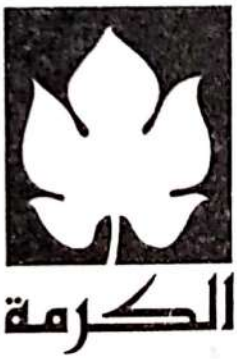

لمزيد من المعلومات عن الكرمة: facebook.com/alkarmabooks

حقوق النشر © عمر طاهر ٢٠٢٠
الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة
جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب
بأي طريقة من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

طاهر، عمر.
من علم عبد الناصر شرب السجائر/ عمر طاهر ـ القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٠.
٢٠٨ ص؛ ١٧ سم.
تدمك: 9789776743236
١- مصر ـ تاريخ ـ مقالات
أ- العنوان
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٠٨ / ٢٠٢٠

٢٤٦٨١٠٩٧٥٣١

تصميم الغلاف: وليد طاهر

الإهداء

(في نهاية الكتاب)

مكتبة آدم
t.me/AdamLibrary

المحتويات

قبل أن تقرأ
٩

لماذا اختار السادات
أن ينزل مطار «بن جوريون» ليلًا؟
١٣

لماذا اختار الفراعنة
أن تكون الجنازات مناسَبة للاحتفال؟
٢٧

فيمَ كان يفكر الخديو إسماعيل عندما قرر إنشاء البرلمان؟
٤١

ما الذي يمكن أن تتعلَّمه المرأة الذكية من تنظيم «الضباط الأحرار»؟
٥٥

متى ظهر أول مُخبر في مصر؟
٦٥

ماذا كان يقصد فؤاد حداد بـ«الوز الأخضر»
الذي كان يصلي على «القنايا من سينا»؟
٧٧

من ألصق بالدمايطة صفة البخل؟
٨٩

كيف كانت «اللجان» قبل أن تصبح «إلكترونية»؟
٩٩

هل كان نجيب محفوظ «تلميذ شاطر»؟
١١١

من علَّم عبد الناصر شُرب السجائر؟
١٢١

هل كان المصريون أكثر «نصاحة» فيما مضى؟
١٣٣

ما الذي يدفع الملك فاروق لصداقة «كهربائي»؟
١٤٣

أين كانت تُباع تذاكر حفل أم كلثوم
الذي أعلنوا أنه سيكون الخميس ٨ يونيو في تل أبيب؟
١٥٣

لماذا قام محمد علي بتأميم البُن؟
١٦٣

كيف تعاملت مصر «الولَّادة» مع أزمة «البطن قلَّابة»؟
١٧١

إهداء.. إلى «بيتر»
١٨٥

مصادر
١٩١

قبل أن تقرأ

ما الهدف من هذا الكُتيب؟

سؤال فشلت في الإجابة عنه في أول شهر عمل. كنت أهرب من علامة استفهام كبيرة تقفز في وجهي كلما جلست إلى المكتب، ثم كبرت في مرَّة لدرجة أنها التهمتني، فركنت كل ما أنجزته، وتفرَّغت لسقاية مزروعات البلكونة، وتوصيل الأطفال إلى منزل جدتهم، والتجول في الشوارع الجانبية بلا هدف، ومحاولة التعرف عبر الإنترنت على أفضل تمارين إزالة الكرش، والتنقل بين أرفف نادي فيديو نتفليكس، وانتظار ساعة وائل علام على إذاعة البرنامج الموسيقي صباحًا، ونصف ساعة محمد فوزي على إذاعة الأغاني مساءً، وشراء مواد طلاء وفرشة لتلوين مفاتيح الكهرباء في غرفتي، ومحاولة تخمين كيف ستكون حالتي

الصحية عندما أبلغ السبعين، وكيف يجب الاستعداد لها مبكرًا، فاشتريت جوز دمبلز للتمرين ثلاث مرات يوميًّا، واستكشاف المطاعم المهجورة، وتأمل بلكونات الناس، وتخمين القانون الذي ترص به كل أسرة غسيلها. كنت أساعد الوقت على أن يمر سريعًا في انتظار أن تظهر أي مِلامح لخطوتي القادمة بعد أن فسد هذا المشروع.

وبعد عدة أسابيع حدث أن افتقدت ما كنت أفعله: القفز بين الكتب والصحف القديمة، ومحاولة استخراج تاريخ من هوامش كتب التاريخ، واصطياد معلومة تبدو بلا قيمة، وتلميعها حتى تصبح اكتشافًا، والتلصص والتنقيب عن نميمة مهملة بين السطور... فعدت إلى المكتب، وغيَّرت وضعه، ثم قررت أن أواصل العمل مكتفيًا بمتعة المذاكرة والاكتشاف، مؤجلًا الإجابة عن سؤال الهدف.

بعد فترة، شعرت أنني أُشبه صبيًّا وجد صالة المنزل مشتعلة بالمشاحنات والتحفز المتبادل والتخوين والاتهامات والأصوات عالية التوتر، صبيًّا يرى صالة منزله في أسوأ حالاتها منذ استقر بها، فقرر أن يهرب من هذا الجحيم إلى غرفته الصغيرة، ثم أمسك بكرتونة المكعبات الملونة، وأفرغ كل ما بها على الأرض، وجلس

يصنع من هذه المكعبات أشكالًا تسمح له باستعادة لياقته النفسية، أشكالًا لا هدف منها سوى أن يجد فيها أمثاله ـ الفارين من جحيم الصالة ـ ما يؤنسهم قليلًا.

هذه المكعبات هدية لك يا صديقي، محاولة لالتقاط الأنفاس، فأهلًا بك في غرفتي الصغيرة، ومعلش بس رجاء صغير وأنت تدخل: «اقفل الباب وراك».

عمر

٢٠٢٠

لماذا اختار السادات
أن ينزل مطار «بن جوريون» ليلًا؟

في «الحفيد» كانت كريمة مختار تتصدر المشهد تُغيِّر ملابسها، وفي الخلفية بعيدًا يقوم مدبولي بالمرور على مفاتيح الكهرباء في الشقة لإطفائها واحدًا تلو الآخر كنموذج للأب المصري. كان مدبولي القادم من بعيد هو بطل المشهد، ولأجل هذا خُلقت السينما. تمنيت أن أكتب هذا الفيلم.

أو أكتب فيلمًا يبدأ عند اللحظة التي اكتشف فيها عبد الناصر وهو يتلقى العلاج في موسكو عام ١٩٦٨ أن أصابع قدميه مصابة بـ«الغرغرينا»، وعليه أن يصارع الوقت للنجاة من البتر، أسابيع بين حمامات المياه المعدنية والطينية، خوفًا من التدخل الجراحي بعد أن ساءت الحالة. البرد والوحدة وهزيمة عسكرية وصديق عُمرٍ منتحر. تفتيشه

عن لحظات قديمة تمنحه شعورًا بالرضا عن النفس قد يصلح لكسر مرارة اللحظات التي اكتشف فيها كم كان مُفرِطًا في الحماقة. مكالمات تلفونية مع أسرته: هل كان الأب الذي يتمناه؟ الأرق الناجم عن تصلب شرايينه، وساعات نوم قليلة، وكيف كانت أحلامه وكوابيسه، وعلامات المستقبل؟ الضابط الذي كان يأخذ استراحة محارب قبل عدة سنوات في خيمة على جبهة حرب فلسطين، يستمع مع أفراد كتيبته إلى أم كلثوم في الراديو، كيف استقر به المقام هنا في هذا البرد القارس، محرومًا من الأشياء القليلة المفضلة لديه: المشي والدخان والشعور بالزهو؟!

أم كلثوم نفسها تستحق فيلمًا، لكنها ستكون بطلة ثانوية. البطولة الأولى ستكون لشخصية «فاطمة»، زوجة الملحن محمود الشريف[1] التي كانت «تُبلِّع» أدوية القلب التي تتناولها بكلمات مصطفى أمين في مقاله الذي هاجم فيه بشراسة خطوبة زوجها وكوكب الشرق. فتحت فاطمة بيتها لأم كلثوم، وكانت صديقة للأسرة، لكنها لم تتوقع هذا المصير، لم يمر بخيالها أن لقاءات زوجها وأم كلثوم أكبر من مجرد مطربة وملحن. تفكر في هذا الحب الذي جعل أم كلثوم تقبل أن تكون زوجة ثانية وامرأة ثالثة في حياة الشريف؛ كان الشريف يهرب من أم كلثوم وفاطمة عندما

تتعثر في صدره الألحان إلى «فردوس» في المنصورة، لترقق روحه وتلهمه وتفك أسر الموسيقى؛ فتاة ليل وقع في غرامها، ثم هجرت المهنة على يديه، وتفرغت في بيت من حجرةٍ لاستقبال حب حياتها متى احتاج هو إلى ذلك. كتب مصطفى أمين في مقاله ما أنهك قلب زوجة الشريف المريضة فتُوفِّيت. يقول الشريف: «مقال أمين عجَّل بجنازة قلبها المرهق». وهكذا يرى الناس أمين كاتبًا كبيرًا، ما عدا محمود الشريف يراه قاتلًا، وهو ما لم يره بطل الفيلم في نفسه.

أو أكتب فيلمًا عن الأميرة فايزة، شقيقة الملك فاروق، التي بقيت في مصر فوقع في غرامها جمال سالم. جُن بجمالها، وأصبح «متوولًا» بها (و«التِّوَلة» في المعجم: السحر). الضابط القادم من بيئة خشنة وقع في غرام الملكية الناعمة ذات العينين الملونتين، وطاردها كثيرًا، ثم طلب من عبد الناصر السماح له بالزواج منها، فراوغه وطلب منه بعض الوقت حتى تأتي لحظة مناسبة. ترك ناصر صديقه يعيش أحلام النعيم العاطفي المقبل عليه، واستغل أول فرصة فقام بتهريب الأميرة سرًّا إلى تركيا، ليُغلق ملفًّا قد يؤذي الجميع، وقال: «هل قامت الثورة ليتزوج الضباط من الأميرات؟». ثم صدرت أوامر بمحاكمتها غيابيًّا على الهروب بمجوهرات

العائلة المالكة، «ليورطها» أكثر في الهروب وعدم الرجوع (و«الوَرْطة» في المعجم: الوحل الشديد).

أو فيلمًا عن لحظةِ اكتشاف محمد علي أن العقاب الإلهي على مذبحة المماليك كان مؤجلًا. كان محمد علي قد أرسل حملات إلى السودان لجمع رجال من هناك لتشكيل نواة للجيش، واحدة منها كانت بقيادة ابنه إسماعيل، وكان نموذجًا في الفشل والتهور والقسوة، فما كان من ملك منطقة شندي إلا أن رتَّب مأدبة كبيرة لإسماعيل باشا على شرفه، تمامًا مثل «عزومة المماليك»، وقرر الملك أن يُنهي المأساة التي كانوا يعيشونها فأحرقوا إسماعيل ابن محمد علي حيًّا. حزن الباشا خاصة أنه فقد ابنه طوسون قبلها بفترة، ثم انتقم بإخضاع السودان لحكمه. يلوم البعض ناصر على أنه فرَّط في السودان لاحقًا، وأفضل رد قاله صلاح سالم: «قرار الانفصال لا يخص مصر، ولكنه يخص السودانيين».

أو فيلمًا عن نجمة سينمائية في أوج مجدها، تخطط لترك كل شيء والهروب من بلدها. حكاية تبدأ عند مشهد ضابط مخابرات يترك لفاتن حمامة عدة كتب عن الجاسوسية، طالبًا منها أن تقرأها جيدًا، لأنها ستحتاج إليها، مؤكدًا على سرية الأمر. الأماكن كلها، والبيوت،

والهواتف، تحت المراقبة. تطلب فاتن مشورة صديق، فينصحها باعتذار رسمي للضابط، ثم محاولة ترك مصر هذه الفترة. تعتذر، ثم تبدأ المضايقات، وأولها رفض كل محاولاتها للحصول على تصريح السفر (قال أحدهم: أيام الستينيات كنت تحتاج إلى واسطة «علشان تعرف تخرج»، بينما الآن تحتاج إلى واسطة «علشان تعرف تقعد»). لكن فاتن لم تيأس، وكانت تبحث عن خطة، فوقَّعت عقودًا لثلاثة أفلام دفعة واحدة مع المؤسسة العامة للسينما، واستلمت دفعة من مستحقاتها، ثم لجأت إلى رئيس الوزراء طالبةً السفر لزيارة حماتها المريضة في إسبانيا مع العودة سريعًا لبدء تصوير الأفلام التي تنتجها الحكومة. حصلت على التصريح، وطال انتظارها. بعد شهر دخل واحد من أقارب فاتن على رئيس المؤسسة العامة للسينما يحمل له مظروفًا به الأموال التي استلمتها فاتن، مع خطاب اعتذار، وطلب إعفاء من بطولة الأفلام، لأنها لا تتوقع عودتها قريبًا. وكان طلبها من قريبها ألا يُسلِّم الخطاب قبل مرور شهر على سفرها. ولم يعرف أحد أي شيء عنها، حتى ظهرت في باريس ضمن مظاهرة تدعم مصر ساعة وقوع النكسة[٢].

أو فيلمًا عن الأشهر التسعة التي قضاها شخص بقيمة

عباس محمود العقاد في السجن في صحبة أرباب السوابق. كان يدافع عن الدستور في البرلمان، وقال إنه لا يمانع في سحق أكبر رأس في البلد احترامًا لهذا الدستور. كانت التهمة: «العيب في الذات الملكية». ورفض الملك العفو عنه. تسعة أشهر جمع القدر فيها بين العقاد ونوعٍ من الناس لم يمر ما يشبههم في حياته من قبل، مَن فيهم سيقدر على تغيير أفكار الآخر ونظرته إلى الحياة؟

أتمنى أن أكتب فيلمًا يحكي كيف جعلتنا الأفلام نحب الشتاء: «شدة سوستة جاكيت عمرو دياب الجلد حتى نهاية مسارها» (آيس كريم في جليم). تلفيحة أحمد زكي بالشال الأبيض فوق الهاي كول السوداء (الهروب). شبورة الفجر في باب اللوق التي كان عادل إمام يشق طريقه خلالها جريًا (الحريف)[٣]. منقد الفحم و«قنفدة» نور الشريف عند رُوقة (العار). البخار الخارج من فم محمود عبد العزيز وهو يشكو لعم مجاهد (الكيت كات). بالطو محمود حميدة وأغاني منى عبد الغني (الباشا). مشاعر «حكايات الغريب» بموعد مشاهدة ثابت أول أكتوبر أول الشتا. بلوفرات آثار الحكيم الملونة وهي تجري مع حبيبها في شوارع وسط البلد «المغيمة» (الحب فوق هضبة الهرم). بطانية صوف العسكري اللي لف عادل إمام بها نفسه في القطار (المشبوه).

أو فيلمًا عن الأيام الأخيرة في حياة فتى الشاشة الأول في تاريخ السينما المصرية، معبود النساء، ومرجعية مقاييس جاذبية الرجل في جيل أو اثنين. تبدأ الأحداث عندما التقى عماد حمدي في فترة يشعر فيها بالوحدة والوحشة بممثلة ناشئة أثناء تصوير أحد الأفلام. وقع في الغرام باهتمامها، ولم يتوقف كثيرًا عند فارق السن. تزوجا، ثم أنتج لها بأمواله الفيلم الذي كانت تحلم به، وكتب أوراق الفيلم باسم زوجته الشابة كمنتجة، هربًا من مشاكل مع الضرائب. نجح فيلم «بمبة كشر»، وحقَّق أرباحًا عظيمة، لم يتحصل منها حمدي على مليم واحد. بدأ فارق السن يعبر عن نفسه، وبدأت المشاكل، فكان الطلاق. وعاد حمدي إلى بيت شقيقه لأنه كتب شقة الزمالك ذات الحجرات الخمس للنجمة الشابة في بداية الزواج. عاد فتى الشاشة الأول ليبدأ من الصفر. قدَّم دوره في فيلم «سواق الأتوبيس»[٤]، على الرغم من شعوره الدائم بالتعب والإرهاق، ولكن الفيلم فشل تجاريًّا. فقرر أن يحاول من جديد، فمثَّل دور الأب في «العار»، كانت حالته الصحية قد تدهورت، لكنه تماسك حتى أنهى دوره في الفيلم، وبعدها بيوم اتصلوا به ليخبروه أن هناك أجزاء من الفيلم احترقت في المعمل ولا بد من إعادة التصوير،

ولكن البطل ـ الذي كان يُصوِّر خمسة أفلام دفعة واحدة في بداياته ـ قال لهم: «مش قادر أكمِّل». في هذه اللحظات فوجئ بـ«فتحية»؛ زوجته الأولى التي طلَّقها قبل أربعين عامًا، تطرق بابه حاملة حقيبتها لتستقر معه، ترعاه وتخدمه، على الرغم من أنها كانت مريضة قلب. تراكمت الأحزان بعدها على حمدي عقب رحيل شقيقه التوأم، ودخل في اكتئاب. يقول حمدي: «كان العلاج عسيرًا، حتى طرق بابي بدون سابق ميعاد الشيخ الشعراوي مع عبد الوارث عسر. كانا قد عرفا خبر الاكتئاب من الصحف. منحتني الزيارة السلام»، وهو الشعور الذي بدأ به حمدي رحلة جديدة عقب الزيارة بفترة قصيرة.

أو فيلمًا عن الساعات التي قضاها السادات في الطائرة، في الطريق إلى مطار «بن جوريون» (القدس). نظرته إلى مستقبل كل شيء عقب الزيارة، مختلطة بنظرته إلى الطريق الذي قطعه حتى هذه اللحظة. كيف قاوم مخاوفه وهواجسه؟ وكيف تحوَّل كل ذلك إلى مشاهد في رأسه؟ أُفكِّر كثيرًا؛ لماذا اختار السادات أن يدخل الأرض المحتلة ليلًا طلبًا للسلام؟ هل لأسباب أمنية، أم لأنه اطمأن نفسيًّا إلى الليل اطمئنان شخص لستر الظلام وهو يسرق؟ ارتباك السادات بدأ من اليوم الذي أعلن فيه

داخل البرلمان أنه على استعداد للسفر إلى إسرائيل: بعد عودته إلى منزله وسَّط شخصًا ليطلب من مسؤولي جريدة «الأهرام» أن يحذفوا هذا الجزء من خطابه، كان الوقت مبكرًا فتم تنفيذ رغبته، لكن قبل منتصف الليل، وبينما الجرنان على وشك الخروج من المطبعة وسَّط شخصًا آخر طلب إيقاف الطباعة، وإعادة الجزء المحذوف، ووضعه في الصدارة.

أو فيلمًا عن اللحظات التي كان فيها رجال النظام السابق يتابعون على شاشة التلفزيون دبابة تابعة للجيش المصري تسير في أحد شوارع وسط المدينة، وقد سمح قائدها للناس أن يكتبوا عليها بالسبراي الأسود وبخط عريض: «يسقط حسني مبارك». كان هناك بينهم مَن يُنظِّم أفكاره للهروب، ومَن يُنظِّم دفقات شعوره بالندم، ومَن يُنظِّم أكاذيب جديدة. هناك الواثق من كونها عاصفة في المحيط، وهناك مَن كان يرى المحيط يبتلعه. أيادٍ ترتعش من فرط الأدرينالين، مكالمات تلفونية تمتلئ بالأسئلة والصمت، لا أفكار واضحة بخصوص المستقبل، لكن شريط أحداث الماضي يمر سريعًا بتفاصيل واضحة. الوقت لا يكفي لملاحقة ما يحدث، حصر للثروات المستقرة بعيدًا عن الأعين، ارتباك صحي يثير فزع

المحيطين، اعترافات مؤجلة تنفجر، خيانات صغيرة، أقنعة تسقط، سلطة تُنتزع، أحجام تتضح حقيقة مقاساتها، الأمن غائب، وطرق يحرسها أصحاب ثأر، وناس تغني في ميدان التحرير فَرِحةً، بينما يتصاعد من خلفهم دخان احتراق محراب الحزب الوطني المقدس.

فيلم السينما يعبر عن صراع وأزمة، الأمر الذي يجعل كل لحظات حياتنا أفلامًا: اللحاق بالركعة الثانية في صلاة الجمعة، موافقة الكلاينت، خلع الحجاب وارتداؤه، العثور على «ركنة، واسطة، مدرسة قريبة للبيت، لينك للمباراة، تذكرة لحفل عمر خيرت، محامٍ شاطر، طبيب عنده ضمير»، الوقوف بين يديِّ محصل الكهرباء، وهي اللحظة التي يبدو أنها أزمة قديمة من أيام عبد المنعم مدبولي.

هامش ١

في الحوار الصحفي الذي كشف خبر خطبة أم كلثوم والشريف، سألها مصطفى أمين هل ستعتزل الغناء بعد زواجها من الشريف، فقالت: «الأمر له وما يريد». وهي الإجابة التي قلبت الدنيا حرفيًّا. قرأ أحمد رامي الخبر، فخرج من بيته مهرولًا

بالبيجامة من أثر الصدمة، وركب الترام هائمًا حتى لفت نظره الكمساري لما يرتديه. وهجم زكريا أحمد على الفيلَّا، ووقف على بابها يسب لأم كلثوم والشريف. أما محمد القصبجي، فقد حمل مسدسه وهجم مباشرة على غرفة نوم أم كلثوم، وكان يخبئه في ملابسه، وعندما رفعه في وجهها لم يتحمل جسده النحيل ثقل المسدس فوقع به أرضًا.

غضب القصر الملكي وكبار الباشوات، وكان الضغط النفسي كبيرًا على أم كلثوم، حتى إنها مرضت، فسارع الشريف وأحضر لها طبيبًا كان صديقًا له، اسمه حسن الحفناوي، عالج الحفناوي أم كلثوم ثم تزوَّجها، وكانت الزوجة الثانية.

من أشهر ألحان محمود الشريف: «حلو وكدَّاب» لعبد الحليم حافظ. «رمضان جانا» و«يا أهل المحبة» لمحمد عبد المطلب. «تلات سلامات» لمحمد قنديل. نشيد «الله أكبر» و«ع الحلوة والمُرَّة» و«وله يا وله» لعبد الغني السيد.

هامش ٢

كان مصطفى أمين من أوائل الأشخاص الذين توقَّعوا علانيةً حدوث النكسة، لكن جمهوره في هذه اللحظة لم يكن سوى مأمور السجن الذي يقضي فيه أمين عقوبة الحبس في تهمة التخابر مع جهات أجنبية.

استدعاه المأمور من زنزانته، وطلب منه التوقيع على ورقة

مرسلة من رئاسة الجمهورية، مكتوب فيها: «أُقر أنا الموقِّع أدناه فلان، بالتنازل عن شقتي رقم ٦٢ في ٨ شارع صلاح الدين بالزمالك بكل ما فيها من أثاث».

كان الأمر مستفزًّا، فكتب أمين على الورقة بخط يده: «أرفض أن أتنازل عن شقتي، وأنا في دهشة أن أقرأ في الصحف أن الجيش المصري يحشد للاستيلاء على إسرائيل، بينما أجد أحد كبار ضباط الجيش المصري يحشد للاستيلاء على شقتي». وقَّع الورقة، وأعادها إلى المأمور مع تلميحات عن هزيمة متوقَّعة وقريبة. تعامل معه المأمور باعتباره شخصًا فَقَدَ عقله بسبب السجن، وأنه يتحدث عن الهزيمة، بينما كل شبر في البلد يتحدث عن انتصار قادم. وأمر بعزل أمين عن بقية المساجين حتى لا تنتشر العدوى.

وعندما وقعت النكسة استدعاه المأمور وسأله: «كيف عرفت؟»، فقال أمين: «واحد زائد واحد يساوي اثنين، ونحن لم نكن نُعدُّ جيشًا ليحارب، ولكن كنا نُعدُّ جيشًا ليحافظ على النظام. الضباط الذين أرسلناهم في بعثات إلى الكليات الحربية في روسيا وأمريكا ويوغسلافيا، عادوا ليتم تعيينهم رؤساء مجالس إدارات شركات الصابون والسردين وتعمير الصحاري. المحاربون في المكاتب، فمَن سيحارب غير المدنيين؟».

ملاحظة أمين السابقة، ردَّ عليها الكاتب الكبير محمود السعدني قائلًا: «كان هناك ضباط أصحاب رغبات شخصية وأطماع في السُّلطة، وكانوا عبئًا على الثورة، واستطاع

عبد الناصر بذكاء عظيم أن ينقل هؤلاء الضباط خارج الجيش، وأسند إليهم مناصب مدنية، لكي يظلوا بعيدًا عن القوات المسلحة حمايةً لها».

لكن ما لم يُعلِّق عليه السعدني ـ حسب علمي ـ واقعة كانت قبل النكسة بقليل ـ رواها مصطفى أمين أيضًا ـ حدثت عندما ظهرت أخبار عن اجتماع طويل عقده بعض القادة، ولم يكن الاجتماع له علاقة بالحرب، وإنما عُقد برئاسة المشير عامر بصفته رئيس اتحاد كرة القدم، والفريق مرتجي باعتباره رئيس النادي الأهلي، والفريق صدقي محمود باعتباره رئيس نادي الطيران، والاجتماع كان لمناقشة انتقال اللاعب «لمعي» من نادي المنصورة إلى النادي الأهلي.

هامش ٣

منذ انطلقت مسيرة نجومية عادل إمام، لم يتعرَّض إلى أمر مماثل لما اختبره في أول عرض لفيلم «الحريف»، عندما عبَّر الجمهور عن استيائه من الفيلم بالصفافير والتعليقات الساخرة بعد نصف ساعة فقط من بداية عرضه، الأمر الذي جعل الزعيم يغادر السينما قبل نهاية الفيلم.

هذا السقوط الجماهيري قابله نجاح نقدي كبير لواحد من أجمل أفلام السينما المصرية، لكن الزعيم المشغول بالجماهير أكثر من النقاد، اجتهد في العام نفسه ليلحق بشعبيته قبل أن

تتسرب من بين يديه. وقد نجح في ذلك بعد أن قدَّم قبل نهاية العام ثلاثة أفلام دفعة واحدة: «خمسة باب»، و«عنتر شايل سيفه»، و«المتسول»، وهي الأفلام التي رضيت عنها الجماهير، لكن قال عنها النقاد ساخطين: «أصبح عادل إمام بضاعة لمن يمتلك الثمن».

هامش ٤

من أغرب مبررات الفشل الجماهيري في تاريخ السينما المصرية، ما قدَّمه أصحاب فيلم «سواق الأتوبيس»، الذي عُرض في سينما «كايرو». وكان كل فيلم يُعرض وقتها في دار عرض واحدة فقط. قال أصحابه إن الفيلم لم يُحقِّق إيرادات لأن «التكييف في سينما «كايرو» كان عطلان».

احتل فيلم «سواق الأتوبيس» المركز الثامن في قائمة «أفضل مائة فيلم مصري»، والتي أُعلنت على هامش مهرجان القاهرة السينمائي الدولي عام ١٩٩٦ بعد استفتاء النقاد.

لماذا اختار الفراعنة أن تكون الجنازات مناسَبة للاحتفال؟

أمسكت بيد جدتي لأساعدها على صعود درجات السلم الخمس العالية في مدخل المنزل. تقف خلفنا فتحية صديقة عمرها، قالت إنها سبق لها أن شاهدت هذا المشهد معكوسًا: كنت طفلًا وجدتي تمسك بيدي لتساعدني على صعود الدرجات نفسها. ثم أطلقت من أعمق نقطة في صدرها تنهيدة على العمر الذي مضى. داعبتها قائلًا إنها لا تزال صغيرة، فعلَّقت بـ: «أنا وجدتك في أرذل العمر خلاص»، فقالت جدتي: «إن أرذل العمر ليس رقمًا، ولكنه اللحظة التي يشعر فيها الشخص أنه أصبح رذلًا، وإنتِ يا فتحية رذلة من يوم ما عرفناكِ».

ضحكت فتحية وسخسخت الجدة، وكان آخر لقاء بينهما. لمحتُ الجدة تبكيها بحرقة قائلة إن ضهرها انكسر

برحيل ذراعها اليمنى وشريكة المشوار، التي لا يبدأ نهار الجدة بدونها: فتحية تُسوِّي القهوة، بينما الجدة تقص عليها ما لفت نظرها في جريدة الصباح. عندما بلغ محمد الموجي خبر وفاة عبد الحليم، أخذ يتصل بكل من يعرفه ليبلغه الخبر قائلًا: «عودي انكسر، عودي انكسر». كانت جنازة حليم مهيبة، وكان حزن الناس عنيفًا لأنه كان قائمًا على الصدمة، حتى إن هناك طفلًا اسمه سمير سيد (٨ سنوات)، تُوفِّي نتيجة الزحام، وداس فوقه الناس وهم يلهثون خلف الجثمان في طريقه إلى البساتين، لكنه رحمه الله تُوفِّي من أجل نعش فارغ! يحكي ابن شقيق حليم عن قرار وزير الداخلية الأسبق أحمد رشدي عندما كان أحد الضباط المكلفين بالتأمين، كان القرار أن تضم الجنازة نعشين: واحدًا يخرج مع الجمهور بالجنازة المذاعة، وآخر حقيقيًّا يخرج إلى مدفن حليم، وذلك لحمايته من اختطاف الجمهور المصدوم. ربما كان حليم هو الوحيد الذي يعرف أن الموعد اقترب، كان قد اشترى أرضًا في البساتين قبل ١٧ عامًا، لكنه لم يوافق على بناء مقبرة بها إلا قبل ٤٥ يومًا من رحلة علاجه الأخيرة في لندن.

الجميع ما عدا السادات، كانوا في انتظار اللحظة ويتوقعونها، حتى إن وزير الداخلية النبوي إسماعيل ونائب

رئيس الوزراء، كانا يبحثان قبل الحادث بيوم عن إجابة لسؤال الوزير: «لو الرئيس اغتيل بكرة في ساحة العرض، الوضع الدستوري في البلد هيكون إيه؟»، وأحضر نائب رئيس الوزراء نسخة الدستور بحثًا عن إجابة.

لم يُصدِّق السادات أنه قد يتعرض لمثل هذا الموقف يومًا ما، على الرغم من كونه شخصًا لماحًا، ولديه قدرة على رصد التفاصيل الصغيرة، وهو على عكس ما يُشاع عنه. قال البعض إن إسرائيل استغلت سمعة عدم اهتمام السادات بالتفاصيل، ورفضه لمطالعة الأوراق والمستندات بدقة مثلما كان يفعل عبد الناصر، ورتبت على هذه السمعة وثائق معاهدة السلام، حيث وضعت «على الوش» ما يهم السادات، ملخص النقاط التي تهمه، ثم خبأت بين السطور تفاصيل أخرى قد لا يرضى عنها السادات، اعتمادًا على أنه لن يلتفت إلى ما بين السطور كعادته. لكن السادات كان يقرأ ما بين السطور حتى لو كان داخل نكتة.

في حفل كان مقامًا في قصر الرئاسة، وقف المونولوجست حمادة سلطان يُلقي نكتة عن اثنين يلعبان الشطرنج، ويرفض أحدهما تحريك العسكري، فسأله الآخر عن السبب، فقال: «مش هيتحرك غير لو حطتله «شلن» في إيده». ضحك الجميع إلا السادات الذي استدعى المونولوجست إلى

منضدته، وسأله عن مغزى هذه النكتة، فحدثه سلطان عن أن ظروف العساكر الصعبة تدفعهم أحيانًا إلى طلب هذه الرشوة الصغيرة. فاجتمع السادات بوزير الداخلية طالبًا منه تحسين أوضاع الجنود الصغار الذين تحولت أحوالهم البائسة إلى نكتة، وهو ما أصدر به الوزير قرارًا في اليوم التالي.

وهو رد فعل يختلف تمامًا عن رد فعل مبارك عندما وجَّه له الكاتب فرج فودة، في اجتماع الرئيس بالمثقفين، طلبًا بتحسين أحوال معيشة أفراد الشرطة لأن أجورهم لا تكفي، فقال له مبارك غاضبًا: «ما تقلقش يا أخويا، همَّ بيعرفوا يتصرفوا، وعايشين كويس أوي»!

كان السادات أكثر ذكاء، ويفهم أن الاحتياج قد يدفعك إلى ما هو غير متوقع.

تعرض الملك فاروق لزنقة، ولم يجد سيولة حاضرة، فاضطر إلى بيع مجموعة أوراق نادرة تخص والده، لأكبر بيت طوابع بريد في العالم بمبلغ مليون دولار، ويقول البعض إنها كانت خطوة أولى لتنفيذ قرار يراود فاروق كثيرًا بالتنازل عن العرش.

الاحتياج والظروف الصعبة قد تثني حاملي الجنسية المصرية عن أي شيء إلا الكرم. وعلى الرغم من عدم امتلاكنا لدليل على واقعة الشراقوة الذين عزموا القطار،

فإننا نمتلك دليلًا على قيام قرى الدقهلية الفقيرة بذلك: بعد العدوان الثلاثي تم تهجير أهالي بورسعيد وشُحنوا في قطار إلى العاصمة، وعلى الرغم من الضنك الذي كان موجودًا وقتها، كان القطار يتوقف بأمر الأهالي عند كل قرية، ثم يصعد الفلاحون حاملين الطعام والماء، داعين مَن يرغب من البورسعيدية إلى النزول والإقامة في بيوتهم التي ستكون أفضل من ملاجئ التهجير في العاصمة، ففعل كثيرون. كرم الفلاحين كان محرجًا للدولة، خصوصًا بعد أن رفضوا الحصول على مليم واحد نظير هذه الرعاية، لكنهم قبلوا بمعونات حكومية من نوعية الدقيق والأرز وأقمشة الكستور والبيجامات والجلاليب وملابس الأطفال. ارتاح المهجَّرون للحياة مع الفلاحين، حتى إنهم قبلوا أن يسكنوا في المدارس والوحدات الزراعية بعد أن امتلأت البيوت، واختارت القاهرة أعداد قليلة منهم.

وهو ما تكرر في بداية الثلاثينيات، ولكن مع «المدينة المنورة»، حيث وصلت أخبار عن تردٍّ اقتصادي وصل بسكان الحجاز إلى حدود المجاعة، وتبنَّى الصحفي توفيق دياب (رئيس تحرير صحيفة «الجهاد») حملة لجمع التبرعات، مطالبًا المصريين: «لننقذ إخواننا العراة الجائعين

أهل المدينة الذين تقطعت بهم الأسباب وكاد يُهلكهم البؤس». تعامل المصريون مع الموضوع وقتها باعتباره كرامتهم الشخصية، وعلى الرغم من ضيق الحال والكساد وآثار الحرب العالمية الأولى، فإنهم لم يتأخروا، واعتبروا إنقاذ مدينة الرسول مهمة وطنية، وتبرع المسيحيون والمسلمون بعد أن شكَّل سكان الأقاليم ـ وهم الأكثر عوزًا ـ لجانًا لجمع التبرعات التي بلغت عشرة آلاف جنيه تم إيداعها في بنك مصر باسم فقراء الحجاز.

هناك من يعتقد أن المصريين أصحاب حيلة في الادخار، وإنكار الثروة، والاختراع المسجل باسمهم: «تحت البلاطة». والأقرب إلى الحقيقة أن أصحاب البيوت التي تحفظ توازن مصر(*) يمتلكون طاقة رهيبة للتعايش مع الظروف، والتحايل على الأزمات لامتصاص قسوتها. ويرى الجاهل في الشبرقة التي يعيشونها أنهم «معاهم فلوس» (شبرق الشيء بمعنى قطَّعه ومزَّقه). وهم أصحاب اختراعات فعلًا توسع عليهم، تقوم على المكاشفة لا الكتمان، عندك مثلًا «الجمعية» و«النقطة»، أفكار شعبية لتدوير الأموال، والمليان يكب على الفاضي، مع تبادل مستمر لهذين الموقعين.

وقع في هذا الفهم شخصية مثل سيدنا عثمان بن

عفان (رضي الله عنه)، عندما كان خليفة للمسلمين، وكان عمرو بن العاص واليًا على مصر. كان عمرو يجمع جباية في حدود «الثمانية ألف ألف»، ولم يعجب سيدنا عثمان بالرقم، وربما أحس أن ابن العاص متهاون، فعزله وعيَّن عبد الله بن أبي السرح الذي جمع جباية تفوق «الأربعة عشر ألف ألف»، فنظر عثمان إلى ابن العاص وكان عنده في المدينة قائلًا: «هل عرفت أن ناقتك قد درت من بعدك؟»، فقال: «نعم، ولكن كم جاع من أولادها؟»، وكانت الإجابة بعد سنوات قليلة، عندما فشل الوالي أن يجمع أكثر من «الثلاثة ألف ألف».

كثيرون يقعون في هذا الخطأ، ينظرون إلى الناقة ولا يلتفتون ناحية أولادها. والمصريون ينجون لأنهم ليسوا أهل طفاسة (طفس المرء بمعنى اتسخ)، ولا يعرف معظمهم «بوذا»، لكنهم يسيرون على قاعدته الشهيرة: «أحمق من يموت من الخوف على ما يمتلكه وهو لا يمتلك نفسه أصلًا».

هناك مقاتلون في معارك الحياة اليومية، وهناك زُهاد مبدأهم: «إن لم تشتهِ شيئًا فلن تفقده». وكان يحيى حقي يقول: «أمر في يومي على فتارين كثيرة تمتلئ بجميع أنواع البضاعة البراقة المغوية، وأحمد الله أنني لا أحتاج إلى

أي شيء منها». لست متأكدًا إن كانت قناعة من الأديب الكبير، أم أنها حكمة التقدم في العمر، مثل قريبتي التي أيقنت أن الحياة الحقيقية تبدأ بعد الموت في الوطن الأصلي، هناك المبتدأ وليس الخبر، فطلبت من أسرتها أن يشغلوا في جنازتها أغنية فيروز: «يا هوا دخل الهوا.. خدني على بلادي».

لا أعرف لماذا اتفقنا على أن تكون الجنازات مناسَبة للحزن. كان أجدادنا الفراعنة يسمونها «احتفالًا جنائزيًّا»، وحتى نهاية سبعينيات القرن الماضي كان النعش يخرج في رفقة فرقة تعزف الموسيقى التي تمتلئ بالشجن وقد اصطف أمامها في طابورين «المطيباتية»، وهم حملة المباخر، بالبدل السوداء الأنيقة والطرابيش. لا مهرب من الحزن، أعرف ذلك جيدًا، ولا أطالب برقص الدبكة بالنعش مثلما فعل اللبنانيون بنعش الفنانة صباح، لكن أفكر في تأمل الموت بنظرة أخرى جعلت الفراعنة يسمونه احتفالًا.

الحياة صعبة، رحلة مرهقة، وهناك شخص قد تجاوزها بنجاح.

هناك شخص أنهى المهمة بسلام، وعلى وشك أن يتذوق الخفة والراحة.

الراحل شخص عبَر الطريق بكل ما فيه من شقاء.

تعلَّم، ونجح، وعمل، وأفاد مَن حوله، واعتنى بأسرة، وربى، وعلَّم، وأطعم، ودافع، وانتصر، وهزم، واستفاد من أخطائه، ونقل خبرته، وعمَّر بقعة من الأرض، وأخذ بيد من يحتاجون إليه. جمع الأموال وأنفقها. جرب الفرح والحزن والغرور والغيرة والقلق والخوف والصبر والستر والمال والفقر. كافأ وعاقب، وكان أحيانًا مثلًا يحتذى به، وأحيانًا عبرة تعلَّم منها الآخرون ألا يكونوا مثله. زرع أحواض نعناع، وأطعم حيوانات، وتصدَّق على من يحرجه طلب الصدقة. انتصر لقيم نبيلة، ودعم وجودها ولو في حدود مجلس ملاك العمارة. حمل فوق أكتافه من هم أصغر من معرفة أن الطريق صعب، وحمل أكياس الزبالة وهو نازل من البيت، وعمل براد شاي العصاري لأسرته. استقبل أناسًا وودع آخرين، وطلع سلالم بـ«دينه». جرب الشر ولسعته آثاره. استوى من الندم، وشبع مقالب وخيانات، وقضى ليالي يفكر كيف ينتقم، ولحظات كانت عمر قرار الصفح. وعد وأوفى، وتوعد وأخلف. وقف في عزاءات، ورقص في أفراح. جرب المرض والشفاء والإرهاق والكآبة وقلة الحيلة وآلام أسئلة النفس. ولم يثنه كل ذلك عن خطوة واحدة إلى الأمام.

هذه مسيرة شخص يستحق أن نحتفل بنجاحه فيها. أن نرى أنه «عمل اللي عليه». نحزن لأنه لم يعد موجودًا، ونفرح له لأنه «خلصها على خير».

حتى لو كانت النهاية محبطة قليلًا، مثل سليمان الحلبي، الذي شهد بعينيه قبل إعدامه جنازة مهيبة أقامها المصريون لـ«كليبر» قائد الاحتلال الفرنسي الذي اعتقد الحلبي أنه يخدم المصريين باغتياله. أو مثل الملك فاروق الذي يقول المقربون منه إن وفاته الحقيقية حدثت يوم وصل بمركب المحروسة إلى منفاه في إيطاليا، وتوقَّع أن يستقبلوه هناك بالحفاوة المعتادة، لكنه عندما دخل الميناء لم يجد في انتظاره سوى عسكري بوليس ومندوب وزارة الخارجية. أو مثل السادات الذي قال تقرير الطب الشرعي إن سبب وفاته كان الصدمة العصبية، ربما سبقت الصدمة العصبية الطلقات تحديدًا عندما وقف السادات ليصيح في قاتله: «ما تبقاش مجنون يا ولد». صدمه أنه لم يتوقع أن تكون هذه الطلقات هي مكافأته عن كل ما قدمه إلى أهله، بداية من التراجع عن رفع الأسعار، ونهاية بأوامر صريحة لوزير التعليم مصطفى كمال حلمي عندما استشعر ذعر الأهالي من الثانوية العامة بـ«نجَّح العيال».

ممر الثانوية العامة مضلل، وفتش مثلًا أين استقر

الأوائل على الجمهورية في الثلاثين عامًا الماضية. إجراء ظاهره الدرجات، وباطنه لا يعبر عن شيء حقيقي. بالضبط مثل أحمد بن طولون عندما بنى المارستان (المستشفى) لعلاج المرضى وحماية الناس من الأوبئة، وكان قراره أن يظل المريض حبيس المستشفى حتى يُشفى، وكانت دلالة شفاء المريض أن يستطيع أكل رغيف ودجاجة كاملة، ساعتها يُسمح له بالمغادرة!

الأطباء عمومًا لغز. وأذكر يوم جنازة فتحية صديقة جدتي أن قال لها المقربون إنها تبدو بعافية، وعليها أن تزور طبيبًا، فقالت: «أنيس منصور كان كاتب في الجرنان من يومين: «الدكاترة لا بتخليك تعيش براحتك، ولا بتسيبك تموت براحتك»». قالوا لها: «يدِّيكِ طولة العمر يا جدة»، فقالت: «اللي ما يموت.. منين يفوت؟».

هامش

يحافظ البلد على اتزانه بفضل البيوت التي لا يمكن رؤيتها من على الوش، عميقة تحت الجلد.

بيوت «صحوا العيال علشان تتعشى». وميثاق العيش

والملح الذي ينافس ميثاق الفاتحة، يحفظونه لثقتهم أن «الخاين بيخاف من ضله». أصحاب نظرية «الاستئذان عكاز الأعمى»، يلتمسون الأعذار لإيمانهم بأن «اللي يفتش ورا الناس، الناس تفتش وراه»، ويغضون البصر عن كون «الجار السو يحسب الداخل ما يحسب الخارج».

بيوت تتأمل المذيع آخر اليوم وهو «يزعق فيهم»، بينما لا يجرؤ أن يرفع عينه إذا خطّى عتبة بيوتهم.

بيوت لا تطارد جمع الأموال، لكنها تطارد «البركة»، الرهان عليها معجزتهم المتكررة، قداسة الحلال والحرام دون نفرة عروق، والرضا بلا مصمصة شفايف، ولكن بالاستمتاع بالمتاح حتى آخر نَفَس فيه.

بيوت زرع البلكونات، وأقفاص العصافير التي تعج أرضيتها بـ«الغلة».

بيوت تعوم فوق أهلي وزمالك، منذ أن كان البلاستيك عقدة الأول، والمنيا عقدة الثاني.

بيوت تستقبل الأغنيات بقلبها لا بأذنيها، المسلسلات جزء من حياتهم الشخصية، وهم الذين يزرعون جذورًا لمن أحبوه، مثل أن تصبح واحدة من ألعاب أطفالهم «التصفيق العكسي» وهم يغنون: «عادل إمام.. هيلا.. لبس فستان.. لسه باروكة.. ويبقى مدام». لا تدهشهم برامج المقالب الرمضانية، لأنهم اختبروا فكرة أن الناس هم أكبر برنامج مقالب. صور أم كلثوم جزء من زينة جدران الشرفات.

بيوت قوامها «الحساسة»، و«الكلام لكِ يا جارة ولَّا انتِ حمارة؟»، والبحث عن عتبة جديدة، ليس بمنطق الاستعراض بل بحث عن تطور إنساني قائم على فكرة «العادات يسهل تغييرها في بيئة جديدة».

بيوت الجنة تحت أقدام أمهاتها، لأنهن استهلكن أقدامهن في الجري خلف الابن علشان «ياكل، ياخد الدوا، يذاكر، يخلّص ورقه، يشتغل، يتجوز، يخلف»، ثم يستهلكن ما تبقى في الجري من جديد، ولكن خلف الأحفاد، مع رغبة في تصحيح أخطاء الأمومة الأولى.

بيوت تغفر لأنها كريمة، وتكرم لأنها تعرف أننا في مركب واحد.

بيوت تقوم عظمتها على فكرة واحدة، وهي أنها ـ كما يقول «لوريانو» ـ لم تستسلم يومًا.

بيوت أيقونتها الذهبية الصبر، صبرٌ يدهشك، يقوم على فكرة أنه لو للصبر حدود «ما يبقاش صبر»، وهو لا يشبه صبر برامج التنمية البشرية والطبطبة الفارغة، لكنه يقين بأن الأمور ليست كما تبدو لأول وهلة، وأن الوقت كفيل بوضع كل شيء في مكانه المضبوط، صبر «بكرة ترخصي يا ملوخية وتلقى على البيبان»، «البيبان» التي خُلقت لكي تظل مفتوحة.

فيمَ كان يفكر الخديو إسماعيل عندما قرر إنشاء البرلمان؟

كان واضحًا أن أحداث الحلم تدور في بيت عبد الحليم حافظ. كنا في غرفة نومه الواسعة التي يغلب عليها اللون «الأوف وايت»، كان حليم يجلس في الفراش وقد أسند رأسه إلى الحائط، ويخرج من ذراعه خرطوم بلاستيكي ينتهي عند زجاجة مُعلَّقة، بها سائل لونه أخضر، وإلى يمينه الملحن محمد الموجي يرتدي بدلة كاملة ورابطة عنق ويدخن سيجارة ملفوفة.

كنت أحاول أن أبيع لعبد الحليم كلمات انتهيت من تأليفها ليُقدِّمها في أغنية، وكان يهز رأسه استحسانًا وقد أغمض عينيه وأنا أتلوها عليه:

صاحي بدري ولقيتني
ماليه الشيكولاتة جيوبي

ومخاصم حزني ولكن
متصالح ويَّا عيوبي.
يا صباح الثقة في النفس
والمزيكا باللمس
يا صباح الخير يا جيران
حايشين عن أوضتي الشمس.
أنا أعدِّي الشارع طولي
أو أعدِّي ساعات بالعرض
لا تِجيبني يا نخل ف طولي
ولا حاجة تِجيبني الأرض.
سمَّعني صباح الخير.

طرقع حليم إصبعيه في الهواء معجبًا بما سمعه. وبعد ثوانٍ قال إن الكلام رائع، لكنه لا يشعر أنه مناسب له. بينما سيطر الصمت على الموجي، ولم يُبدِ استحسانًا أو امتعاضًا، ثم نظر إليَّ قائلًا جملة واحدة: «إنت غيران من الأبنودي!».

استيقظت مندهشًا من تعليق الموجي، أحاول أن أحدد ما جعله يراني واقعًا في الغيرة من هذا الشاعر الكبير؟

يقول «آلان دو بوتون»: «لا يشعر الشخص بالغيرة ممن يفوقونه، إنما يغار ممن يماثله». بمعنى أنه لا يثير غيرتكَ أن يضع رجل أعمال يده على حديقة عامة ٦٥ فدانًا ملك

المواطنين في الشيخ زايد، لكن يقودك للجنون أن يضع جارك يده على مساحة أمام العمارة لركن سيارته «بجنزير».
لا يثير غيرتكِ زواج امرأة عربية من «جورج كلوني»، لكن تقتلكِ الغيرة في حنة ابنة عمتكِ تغني أمامكِ وأنتِ العزباء: «وردنا مش وردكم.. ما خطبش ليه من عندكم».

هناك فرق بين «أن تغار من» و«أن تغار على».

مثال: كانت غيرة جيهان السادات «على» زوجها كبيرة عندما كانت فيفي عبده ضيفة سمير صبري في أحد برامج التلفزيون نهاية السبعينيات، وسألها صبري: «إنتِ من فين؟»، فقالت له: «من ميت أبو الكوم»، فقال صبري فخورًا وفرحًا: «آه، بلد الريس». طبعًا اللحظة التي صارت فيها ميت أبو الكوم تقدم في جملة واحدة رئيس جمهورية وراقصة، كانت موجعة، فكان قرار غير مكتوب من قرينة الرئيس بعدم ظهور الراقصة والمذيع مرة أخرى على الشاشة. رأت قرينة الرئيس في تصريح فيفي إهانة لمكانة مصر، وهي المكانة التي عبَّرت عنها فيفي بعد أربعين عامًا بتصريحها الشهير: «دي مذكورة في القرآن يا أولاد الأ*ـبة».

والغيرة نفسها أنواع (وأرجو أن تغفر لي نزوة الإفتاء التي تهاجمني كل ٣٥٠٠ كلمة):

الغيرة العادية: هي حالة أنت مشغول فيها بنفسك، تتأمل ما يؤرقك عند الآخرين ويثير غيرتك، وتتخذ من نفسك نقطة ارتكاز لرد فعلك، تنتقم بأن تتقدم.

مثال: سحبت أم كلثوم من سيد مكاوي كلمات أغنية «أنساك»، لأنه طالبها بالاتفاق على الأجر قبل العمل، وهو ما اعتبرته الست إهانة. وأعطت الكلام إلى بليغ حمدي، فلحنه، وكانت انطلاقة عظيمة جرت بعدها أعمال كثيرة أدخل فيها بليغ على فرقة الست الأورج والجيتار الكهربائي، وصارا تفصيلة ثابتة في فرقتها. وبعد سنوات، زال الخلاف بين مكاوي والست، وطلبت العمل معه. غيرة مكاوي من المساحة التي شغلها بليغ في لحظة قدرية جعلته يؤسس لحنه العبقري «يا مسهرني» على فرقة موسيقية بلا أورج أو جيتار. مسح ما أنجزه بليغ، وعاد بأم كلثوم إلى التخت على الرغم من مخاوفها الشديدة، وقدَّم عملًا فذًّا دفع أم كلثوم لأن تسحبه من يده إلى خشبة المسرح وتُقدِّمه إلى الجمهور بعد الحفل، وهو ما لم تفعله في حياتها مع أي ملحن، ولا حتى بليغ.

عندك النفسنة: وهي حالة غيرة أنت مشغول فيها بالآخر أكثر من نفسك، تتمنى له الخسارة حتى تهدأ روحك.

مثال: كانت نادية الجندي (التي لقبت نفسها بـ«نجمة الجماهير») تخصص موظفًا لحضور عروض أفلام نبيلة عبيد (التي لقبت نفسها بـ«نجمة مصر الأولى») ليقدم لها تقريرًا عن مدى نجاح الفيلم. وفي مرَّة استمر عرض أحد أفلام نبيلة أسبوعين فقط (وكان وقتها نجاح الفيلم لا يُقاس برقم الإيرادات، ولكن بعدد أسابيع عرضه)، فاتصلت الجندي بعبيد فرحة، وتركت لها على «الأنسر ماشين» رسالة: «ده الفيلم الأولاني، عقبال التاني». كان الفيلم المعروض وقتها تجاريًّا بحتًا، وتعلمت عبيد الدرس، فقررت أن تقدم فيلمًا ذا فنيات عالية، فكان «الغرقانة» مع محمد خان، وكان الفشل من نصيبه أيضًا، وتلقت البطلة من جديد عبر «الأنسر ماشين» رسالة الجندي: «أهوه التاني أهوه، والتالت جاي».

عندك الحقد: وهي حالة غيرة أنت مشغول فيها بالآخر أكثر من نفسك، لكن لا تكتفي بتمني الخسارة له، بل إنك تقدم كل ما تقدر عليه لتكون سببًا في هذه الخسارة.

مثال: الشائع أن العدوان الثلاثي على مصر حصل بسبب تأميم قناة السويس، لكن الحقيقة أنه حدث لأن مصر عندما أمَّمت القناة استطاعت أن تُشغلها بمفردها دون الحاجة إلى المرشدين الأجانب، وهو ما استفز العالم الذي كان يراهن على الفشل، وعلى استحالة عودة القناة إلى العمل بدون

الخواجات القائمين على تشغيلها منذ عقود. نجحت مصر، فأثار ذلك حقد المطرودين، فكان العدوان. وهو ما عبَّرت عنه أم كلثوم في أغنيتها الوطنية:

ريِّسنا قال

مفيش محال

راح الدخيل

وابن البلد كفى

محلاك يا مصري وإنت على الدفة

الأغنية كلمات صلاح جاهين، وقد شاب علاقته بأم كلثوم بعض التوتر، خصوصًا عندما طُلب من جاهين رأيه في أغنية أم كلثوم الجديدة «إنت عمري»، فقال: «أشعر أنها الابنة المراهقة لألحان رياض السنباطي».

جفوة أخرى بين الست وأديب آخر، هو يوسف إدريس. طلب منه أحد الإذاعيين تعليقه على منع التدخين في حفلات أم كلثوم، فقال: «لو جاء لي أحد أثناء الحفل طالبًا مني أن أُطفئ سيجارتي، فسأنصرف فورًا». وهو كلام أغضب أم كلثوم، وعلَّقت عليه في لقاء صحفي بأنها تنصح يوسف إدريس أن يجلس ليستمتع بسيجارته في بيته، ويستمع إلى الحفل في الراديو.

عندما تأتي سيرة الحقد يظهر في أذهان البعض

مباشرة ضباط ثورة يوليو، وهي فكرة سرَّبها شخص ما في مجتمع يقول أحمد شوقي عن غالبيته:

أثَّر البُهتانُ فيه وانطلى الزُّورُ عليه
يـا لـه مـن بَبَّغـاءٍ عَقلُـه فـي أُذنَيـه

ضباط ثورة يوليو كانت عندهم مشاكل من نوع آخر، ليس بينها الحقد، ويأتي على رأس هذه القائمة: «المراهقة». وهي حالة لا ترتبط بسن محددة، ولكن ترتبط بأدائك وما ينطوي عليه من عشوائية وانفعالات عاطفية وتقلب في المزاج وبعض الغرور، فهناك أب مراهق، وسياسي مراهق، وكاتب مراهق، وهكذا. تلك المراهقة التي جعلت تحية كاريوكا، أقوى نصير لثورة يوليو، تقول بعد «شوية وقت» عن الضباط الأحرار: «شيلنا فاروق وجبنا فواريق».

لم تكن ثورة يوليو حقدًا على الباشوات، لأن الانشغال الحقيقي كان بالتيسير على العاديين: تخفيض إيجار المساكن، الوحدات المجمعة، المساكن الشعبية، الجمعيات التعاونية، تأسيس منظومة القوى العاملة واعتبار البطالة مسؤولية الدولة، تلفزيون[1] في كل مركز شباب عند ظهوره، جعلوا الفن والثقافة متاحين للجميع بمشروعات أسَّست لمحتوى نعيش من خيره حتى هذه اللحظة، التعليم المجاني (في العام السابق للثورة بُنيت ٣ مدارس، وفي

السنوات الخمس الأولى من الثورة بُنيت ١٢٣٥ مدرسة). كان التخفيف على الناس هدفًا أساسيًّا، وأُقيمت هيئات حكومية لهذا الغرض. على العكس من غرض إنشاء هيئة حكومية شهيرة مثل البرلمان في عهد الخديو إسماعيل. كان إسماعيل قد بدأ في فرض ضرائب على المصريين لتسديد ديونه لبيوت المال الأجنبية. وعندما شعر بتململ المصريين، وأصوات عالية بدأت تظهر متسائلة عن أحقية الحاكم في كل هذه الضرائب التي سوَّدت عيشتهم، وهي أصوات أقلقت الدائنين وأثارت تساؤلاتهم، قرر إسماعيل ساعتها تشكيل هيئة نيابية تُصوِّت باسم الشعب على الإجراءات التي تتخذها الحكومة لتصبح ملزمة تشريعيًّا دون الرجوع إلى أحد، فكان البرلمان المصري.

الكيان الذي يفترض أن يكون صوت الشعب، صممه الخديو إسماعيل «بحيث إن محدش من الشعب يفتح بُقه»، بتكنيك عمل يقوم على فكرة أن يرسل الشعب مندوبًا للحكومة، وهي التي ستقوم بضبط «السيتنج» الخاص بـ«بُقه». وكان يحدث أحيانًا خلل في ضبط المصنع، فتسمع من النواب أفكارًا ألمعية. في بداية الثلاثينيات مثلًا، طالب نائب مديرية قنا إبراهيم حسن بفك القيود عن زراعة الخشخاش كعلاج للأزمة الاقتصادية، ودعمه

في ذلك نائب قفط فكري الصغير قائلًا إن الفدان يعطي في المتوسط خمسة عشر رطلًا من الأفيون وقيمة الرطل عشرة جنيهات، بينما تكلفة زراعة الفدان خمسة جنيهات. وحينما قال له زملاؤه إن الأطباء أثبتوا احتواء الأفيون على مادة مخدرة مُضرة بالصحة، رفض كلامهم لأن التجربة من وجهة نظره أثبتت عكس ذلك. وربما جاء اقتراحهما من خلفية أن زراعة الخشخاش في مصر لم تكن مُجرَّمة في ثلاث مدن بالصعيد (قنا، جرجا، أسوان) حتى بداية العشرينيات. لكن لم أجد تأصيلًا لأحد اقتراحات القضاء على البغاء، الذي يقوم على فرض ضريبة على العزاب المقتدرين، ويرى صاحبه أنه سيفيد بطريقتين: الأولى التشجيع على الزواج بعد ارتفاع نسبة العنوسة (على أساس أن مصاريف فتح بيت ستكون أرحم من الضريبة)، والثانية استغلال ما يتم تحصيله في إعانة الساقطات بإنشاء المؤسسات لإصلاحهن.

ربما تبدو اجتهادات النواب السابق ذكرها، مُعبِّرة عن مستوى ثقافة غلبان، وخيال قائم على الشطحات، لكنها خالية من شُبهات النفاق أو المجاملة. بخلاف نواب مجلس الشعب في نهاية السبعينيات، الذين شكَّلوا لجنة خاصة لعمل تعديلات يتم عرضها على الشعب، وفي

مقدمتها مادة أن يتولَّى السادات الرئاسة مدى الحياة. إلى هنا والأمور تبدو عادية، لكن الجديد هو اقتراح النائبة فايدة كامل إضافة مادة لا تتوقف عند رئاسة السادات مدى الحياة، لكنها تمنحه الحق في أن يُعيِّن مَن يخلفه، ما يمكن اعتباره عودة إلى الملكية بتاج ختم النسر.

انشغلت ثورة يوليو بكرامة المصريين في الداخل والخارج، وإن لم يمنع هذا أن يكون ضحية أول احتكاك بمصري في الغربة واحدًا من مجلس قيادة الثورة. كان السادات[٢] في مأدبة عشاء رسمية في الكويت بوصفه رئيسًا لمصر، وقبل سفره كانت هناك حملة صحفية تقول إن ناصر اختلس عشرة ملايين دولار كانت قرضًا لمصر، ولم يتدخل السادات بحسم لوقف هذا الكلام. وعلى العشاء قام المسؤول الكويتي وقال للسادات: «لا نقبل أن يُقال في مصر هذا الكلام عن ناصر الذي كانت خزائن مصر والعرب تحت أمره. وأطلب من سيادتكم أن تحدد أي مبلغ ترون أنه في ذمة ناصر، وسيقوم الكويتيون بتسديده عنه، وسنجمع المبلغ في ٢٤ ساعة». كانت حمقة المسؤول كبيرة، ووضعت السادات في «حوسة» (والحوس كلمة فصحى معناها: انتشار الغارة والقتل وتكراره. والحوسة مفردها).

كان ناصر يفخر في خطاباته بأنه لا يمتلك سوى

«ستر ربنا»، وهذا ليس دفاعًا عنه، فملخص تجربة ناصر بالنسبة إليَّ ما قاله عنه أحمد فؤاد نجم في قصيدة[٣]:

عمل حاجات معجزة

وحاجات كتير خابت

وعاش ومات وسطنا

على طبعنا ثابت

والموضة حاليًّا هي تهشيم الرجل «عمياني»، وقراءة تجربته بمعزل عن زمنها وأدواتها، ومراقبة هذه الموضة تؤكد أن ربنا «بيستر»، لكنْ المصريون «ما بيستروش»، ويبني معظمهم وجهة نظره على قرارات سابقة في ذهنه قد لا تكون هناك علاقة بينها وبين الواقع، مثلما فعل محمد الموجي مع كلماتي التي كان حليم سيغنيها لولا تأثير غامض للسائل الأخضر العجيب الذي كان مُعلقًا إلى جواره.

هامش ١

في بداية الثمانينيات كانت الكهرباء تصل إلى القرى بالقطارة. العادي أن يقول الناس وسط اليوم: «الكهرباء اتقطعت ساعة»، لكن شعار أهل القرى وقتها كان: «الكهرباء جات ساعة».

وزير الكهرباء وقتها (ماهر أباظة) قال نصًّا: «مخطط كهرباء الريف في بدايته كان هدفه إضاءة أربع أو خمس لمبات في المنزل للاستغناء عن الكيروسين نظرًا لما سببه من حرائق. والهدف من هذه اللمبات كان توفير الإضاءة ليلًا للطلاب في القرى لانتشار التعليم، وجهاز تلفزيون في كل مركز شباب للترفيه. كان دخل الفلاح وقتها جنيهًا واحدًا في اليوم، وبالتالي ليس في خططه شراء جهاز تلفزيون وفيديو، لكن بعد هجرة العمالة المصرية إلى الخليج، زاد إقبال الفلاحين على هذه الأجهزة، وأصبح هناك تلفزيون في كل بيت، وتضاعف استهلاك الكهرباء ١٤ مرَّة».

هامش ٢

كان أغرب تفسير مر عليَّ لاختيار عبد الناصر للسادات نائبًا لرئيس الجمهورية هو «الشفقة». يقول محمود جامع، أحد أصدقاء الرئيس: «كلما حدث أمر مهم أو مشكلة، كان السادات «يعمل عيان»، ويُفهِم عبد الناصر أنه سيموت قريبًا، ويُوصيه على أولاده: «وحياتك الأولاد يا جمال»، وكان يكررها. فهم ناصر أن السادات سيموت قريبًا، وأن الأمر لا خوف منه، فعينه نائبًا!».

اختفاء السادات ليلة ثورة يوليو، ثم قيامه بتصدُّر المشهد بصوته، حين أذاع بيان الثورة، تكرَّر حرفيًّا عند وفاة ناصر. يقول المقربون إن ناصر استبعد السادات قبل وفاته بفترة،

والسبب شائعة تقول إن نائب الرئيس فرض الحراسة على فيلَّا أعجبت زوجته. وكانت إزاحة السادات عن منصبه مسألة وقت، خصوصًا مع تغييرات سياسية كان يُرتب لها ناصر، لكنه تُوفِّي، وكان آخر من حضر هو السادات الذي قبَّل يد ناصر، ثم غطى وجهه بملاءة السرير، ثم تصدَّر المشهد بعدها بصوته حين أذاع بيان رحيل ناصر.

هامش ٣

قال العم أحمد فؤاد نجم في قصيدة «زيارة إلى ضريح عبد الناصر»:

من ضلعنا نابت
لا من سماهم وقع
ولا من مرا شابت
ولا انخسف له القمر
ولا النجوم غابت
أبوه صعيدي وفهم
قام طلَّعه ظابط
ظبط على قدنا
وع المزاج ظابط
فاجومي من جنسنا
ملوش مرا عابت

فلاح قليل الحيا
إذا الكلاب سابت
ولا يطاطيش للعدا
مهما السهام صابت
عمل حاجات معجزة
وحاجات كتير خابت
وعاش ومات وسطنا
على طبعنا ثابت
وان كان جرح قلبنا
كل الجراح طابت

ما الذي يمكن أن تتعلَّمه المرأة الذكية من تنظيم «الضباط الأحرار»؟

داخل حمَّامات مطار أمستردام، وضعوا مُلصقًا صغيرًا أشبه بذبابة في منتصف كل مبولة، وبعدها تغيَّرت الأحوال كثيرًا إلى الأفضل، فقد بدأ الرجال يستهدفون هذه الذبابة أثناء التبول، مما حسَّن دقة التصويب وقلل تناثر البول، وخفض تكاليف نظافة الحمامات إلى الربع.

تستحق التقدير المرأة التي تمتلك مهارة التعامل مع هذا الكائن المشتت، القادرة على إدارة العلاقة مع كائن يرتبك وهو يمارس فعلًا غريزيًّا، يضعون له علامات لإنقاذ العالم حوله من الطرطشة، فما بالك به وهو يُعبر عن أي مشاعر أخرى أكثر تعقيدًا؟

أحترم المرأة التي تستطيع أن «تبيَّع الرجل هدومه» بألمعية حسن المخاطبة، مثلما فعل الضباط الأحرار مع

الملك فاروق. لم يدخلوا عليه في قصر المنتزه بالدبابات، لكن برسالة حملها السادات وسلَّمها إلى رئيس الوزراء «من الفريق محمد نجيب[1] باسم ضباط الجيش، إلى جلالة الملك فاروق»، وقدَّم فيها تفسيرًا لما قاموا به بعد الفوضى التي عمت البلاد، وقالت الرسالة نصًّا: «فوضني الجيش الممثل لقوة الشعب أن أطلب من جلالتكم التنازل عن العرش لسمو ولي عهدكم الأمير أحمد فؤاد قبل ظهر السبت ٢٦ يوليو، ومغادرة البلاد قبل السادسة من مساء اليوم نفسه، والجيش يحمل جلالتكم كل ما يترتب على عدم النزول على رغبة الشعب».

النبرة الهادئة الممنطقة التي تحافظ على الألقاب والمقامات، وتلمح من بعيد لعواقب مجهولة، جعل هذا كله فاروق يوقع ويرد برسالة أكثر احترامًا، قال: «لما كنا نتطلب الخير دائمًا لأمتنا... ولما كنا نرغب رغبة أكيدة في تجنيب البلاد المصاعب... ونزولًا على إرادة الشعب، قررنا النزول عن العرش لولي عهدنا».

قارن المرأة التي تمتلك ذكاء الضباط الأحرار - في حدود الواقعة المذكورة يعني - بامرأة تمتلك موهبة خلع ألقاب جديدة على زوجها كل فترة، فتنصبه «شُرابة خُرج» (وهي مفرد شراشيب، وهي خيوط قطنية ملونة عديمة

الفائدة تُستخدم لتزيين الخُرج، وهو حقيبة يدوية من القماش)، أو «المدعوق» (وهو الرجل الذي لا يعيش له أبناء)، أو «الخِرِع» (وهو المندهش المنبهر بالأحداث لدرجة أنه لا يحسن التصرف معها).

المرأة التي تتفادى المعايرة بكلام يسم البدن. مثل أحد كُتَّاب مجلة روز اليوسف عام ١٩٤١، الذي علَّق على طلب ليلى مراد لأجر ألف جنيه للتمثيل أمام عبد الوهاب في «ممنوع الحب»، قائلًا: «ولما كان هذا المبلغ ضخمًا، ولما كان عبد الوهاب هو الذي أوجد ليلى مراد من العدم، وأظهرها في عالم الغناء، ويمكنه أن يُظهر غيرها، فقد تم رفض طلبها والاتفاق مع رجاء عبده». أو مثل وزير الثقافة (عبد الحميد رضوان) الذي علَّق على مقال ليوسف إدريس انتقد فيه عجز الدولة الثقافي، فكتب الوزير في مقال نشرته «الأهرام»: «إدريس، هذا المجوَّف، هذا المخدور (بيضرب مخدرات يعني)، حاشا لله أن يكون هذا الإدريس من أبنائك يا كنانة الله». بالمناسبة، حكمت المحكمة للدكتور إدريس بتعويض عشرين ألف جنيه ونشر اعتذار رسمي. أو مثل وزير الداخلية السابق زكي بدر الذي كان يراقب تلفونات المسؤولين، ورصد مكالمة بين وزير مهم ظل في السُّلطة حتى رحيل مبارك، وفنانة كان على علاقة بها، وسمعها

تخبره هاتفيًّا أنها أحضرت له «شوية كرافتات تحفة. تحب نتقابل إمتى يا روح قلبي؟». وبعدها بفترة كان هناك اجتماع لمجلس الوزراء، وفور دخول هذا الوزير إلى الاجتماع نظر إليه زكي بدر ضاحكًا ومتسائلًا: «الكرافتات حلوة يا روح قلبي ولَّا طلعت واسعة عليك؟». وكانت فضيحة.

امرأة من هذا النوع هي شخصية لم تسمع ما قاله «جون كلير» يومًا ما: «طموح كل رجل أن يصل إلى القبر دون لحظة إحراج واحدة».

أحترم المرأة التي لا تواجه غضبًا بغضب، وتتفادى «سلام الجباس على الخباز»، وهو سلام كله عَفَرة، ولا تعاقب مثل محمد علي باشا الذي كان يعاقب المتهرب من دفع الضرائب بقطع حلمتَي أذنيه، ولا تنقض عهودها مثل ناصر الذي أصدر أمرًا في ١٩٥٦ بأن تُحذف من قانون المطبوعات جميع المواد التي تحمي رئيس الدولة من النقد، ثم أمَّم المطبوعات كلها. وتتجنب حدة الطباع فلا تكون نسخة من فايزة أحمد التي جعلت عبد الوهاب، أثناء جلسة عمل، يقسم بالثلاثة أنه سيعتزل التلحين (وكان أيضًا شرط هاني شنودة لتسجيل موسيقى أغنياتها: «ما اشوفهاش في الاستوديو وهاعملها اللي عايزاه»).

المرأة التي تفهم أن «قطة الرجل جمل» فتعامله بهذا

المنطق، مثلما أقام المصريون الأفراح والاحتفالات عندما شُفيت ذراع الناصر قلاوون المكسورة. وتعرف أن «عيب الرجال قلتهم»، وأن سوق الرجال تمتلئ بنماذج كثيرة تشبه الخروب (قنطار خشب على درهم سكر). ومع ذلك فهي لا «تستسهل» الاستغناء عنه، وتفهم جيدًا مقولة «السعادة مثل القُبلة، لا يمكن الحصول عليها منفردًا».

المرأة صاحبة حسن الحيلة، مثل السادات. يروي السفير الروسي في مصر وقت جنازة عبد الناصر، أنه بينما يسير في الموكب المتجه إلى المدفن، لمح موكبًا قادمًا في الاتجاه المضاد، وكانوا يحملون شخصًا فوق كرسي وقد تدلى رأسه وراحت ساقاه تتأرجحان، واكتشفوا أنه السادات، وأن حالته النفسية سيئة، وأنه مقيم في المستشفى. وبعد انتهاء الدفن توجَّه السفير لزيارته، ووجده يقيم في الغرفة نفسها مع علي صبري، وكلاهما يتأوه. وفسر الأطباء حالتهما بالضغط العصبي. وبعد فترة خمن السفير الروسي من نظرة شاملة إلى كل ما يحدث، أن السادات ذهبت به الظنون، بعد أن سمع بمرض علي صبري منافسه المحتمل، واختفائه في المستشفى، أن الرجل يدبر شيئًا ما بحيث يصبح هو الرئيس وليس السادات. فادعى المرض بقدراته التمثيلية، وأسرع ليكون

بجوار صبري حتى لا يغيب عن ناظريه، ويصبح على مقربة منه إذا كان يخطط لشيء.

المرأة التي تحترم كبرياء الرجل، وتتفادى معاملته بالمنطق الذي كان يتعامل به الباشوات مع الفلاحين قبل الثورة، منطق «الفلاح لا يشتد جِلده إلا بجَلده»، وتجيد انتقاء ما تعترض عليه، لأنه يعبر عن حقيقة شخصيتها، فلا تصبح مثل بعض مشايخ الأزهر الذين احتجوا على الرقابة لسماحها بمشهد في فيلم «الوردة البيضاء» يُقبِّل فيه محمد عبد الوهاب البطلة وهو يرتدي الطربوش، وذلك لأن الطربوش شعار مصر القومي (بصرف النظر عن كون تقبيل الواحد لحبيبته بالطربوش أقرب إلى سمير غانم من عبد الوهاب). وتجيد انتقاء من تستعين برأيهم ومشورتهم، مثلما كان عبد الحليم حافظ يذهب إلى مكتب محمد حسنين هيكل[٢]، ويقوم معه بجلسات عمل قبل تقديم بعض الأغنيات الوطنية، الأمر الذي جعل البعض يقولون إن صوت حليم كان وزارة إعلام عبد الناصر.

تفاصيل صغيرة - ولا أعرف إن كان الخبر القادم جيدًا أم سيئًا - ستجعل الزوج يتمسك بكِ مهما كانت الضغوط، مثلما تمسك الملك فاروق بزوجته الثانية ناريمان، واعترض

السفير البريطاني على الزوجة قائلًا إنها وفقًا للاصطلاح المصري «بلدي» ولا تليق بملك، وأرسل باسم بريطانيا هدية زواج إلى الملك تُعبر عن تقييمهم لهذا النسب، عبارة عن علبة سجائر فضية عادية، في وقت كانت السفارات الأخرى ترسل الألماظات والتحف مهنئة بالزيجة. إلا أن فاروق لم يهتم، واحتفى بناريمان (التي سرقها من خطيبها)[٣]، وأقام لها فرحًا تكلَّف أكثر من ٧٠ ألف جنيه، وحضر معها لحظات الولادة مرتديًا الماسك داخل غرفة العمليات، ثم أنعم على الطبيب بالباشوية بعد أن جاء على يديه ولي العهد. فرح فاروق بناريمان ونجلهما، وأقاما له «سبوع»[٤] باشواتي، واستقرت حياتهما، وعاش معها سعيدًا حتى جاءت اللحظة التي استلم فيها خطاب محمد نجيب.

هامش ١

كان خطاب محمد نجيب الأول للملك. أما الثاني فكان للشعب كله، وقال فيه نجيب: «يسر القائد العام أن يناشد الشعب أن يواظب على ضبط أعصابه وكياسة تصرفاته، فلا يشتط في فرحته، ولا يثور في غضبه، فيشوه الجهد المضني

الذي قام به الجيش مخلصًا لوجه الله والوطن. انتهت الحفلات والمهرجانات، واليوم يوم عمل». وتكررت إذاعة الخطاب كل ساعة، وكان واضحًا أن نجيب يطلب من المصريين بالأدب أن «كله على بيته».

هامش ٢

يقول أستاذنا أحمد بهاء الدين إنه لكي تفهم شخصية عبد الناصر فعليك أن تفهم أولًا علاقته بالسادات وهيكل. كان ناصر الشاهد الأول على عقد زواج هيكل، وكان الثاني علي أمين. وعندما قرر ناصر تعيين هيكل وزيرًا للإعلام، شعر هيكل بالقلق لأنه كان يتوقَّع أن يزيحه ناصر عن «الأهرام»، لأنه لا يُفضِّل أن يشغل أحد منصبين. وذهب هيكل غاضبًا إلى الكاتب لطفي الخولي في بيته، وأخذ يشكو له من ناصر واحتمالات الغدر القائمة وقراراته العشوائية. وكعادة الوقت، وصلت إلى ناصر تفاصيل الجلسة كاملة، وأغضبه بشدة كل ما قاله هيكل، لكنه لم يؤذه، واكتفى بإصدار قرار بالقبض على لطفي الخولي.

هامش ٣

قصة خطف الملك فاروق لناريمان من خطيبها، تبدأ من

محل جواهرجي، أسرَّ له الملك ـ كصديق ـ بمواصفات العروس التي يبحث عنها بعد طلاق زوجته الأولى: صغيرة السن، بلا أخ أو أخت، وملامح أقرب لواحدة يعرفها الجواهرجي كان يحبها فاروق لكنها طفشت من البلد بسببه. وذات يوم دخلت ناريمان محل الجواهرجي مع خطيبها لشراء خاتم الزواج، ووجد فيها الجواهرجي كل المواصفات التي يبحث عنها فاروق، فطلب منها العودة في اليوم التالي ليعرض عليها بضاعة جديدة. وفي اليوم التالي هيأ الجواهرجي لفاروق مكانًا يراقب منه ناريمان. وبعد دقائق قليلة كان فاروق قد اتخذ قراره. ولا تذكر كتب التاريخ ماذا كان مصير خطيب ناريمان، لكنه اختفى من الصورة، ويبدو أنه تعرض لما جعل هذا الزواج لعنة على فاروق وناريمان. وبقي الجواهرجي يعرفه الناس ببضاعته الراقية وأخلاقه الواطية.

هامش ٤

«السبوع»، هو الظاهرة الوحيدة التي لم يستطع علماء الحملة الفرنسية توصيفها في كتابهم «وصف مصر». تأملوها كثيرًا، ثم اكتفوا بسطرين قالوا فيهما إن احتفال السبوع «عبارة عن نزهة تقوم بها السيدات بين كل غرف المنزل».

ومن الأشياء التي أثارت دهشتهم، تغيُّر صيغة الأذان كل فترة، حيث كان الفرنسيون قد منعوا الدعوة إلى اجتماعات

عامة، وفكَّر المصريون في طريقة يجمعون بها الناس، فعثروا عليها عند المؤذنين الذين أصبحوا يعلنون عن موعد ومكان اللقاء داخل الأذان نفسه، بطريقة «حي على الصلاة الساعة ٥»، «حي على الفلاح في المكان الفلاني».

متى ظهر أول مُخبر في مصر؟

في بداية الثمانينيات تبنَّى هاني شنودة صوتين جديدين: شاب قادم من أسوان اسمه «محمد منير»، وشاب قادم من بورسعيد اسمه «عمرو دياب». قدَّم الأول إلى شعراء كبار لينتقوا له من أعمالهم ما يميزه عن غيره. أما الثاني فقد بذل معه مجهودًا ليخلصه من اللهجة البورسعيدية، ولم يجد طريقة أفضل من أن يعقد جلسات تمرين للشاب البورسعيدي على يد واحد من مقرئي القرآن الكريم، وكان صوتهما أثناء الجلسات عاليًا، حتى إن جيران هاني شنودة بدأوا يهنئونه على دخوله في الإسلام.

سألت شنودة عن سر اختياره لهذين الصوتين من بين عشرات كانوا يبحثون عن بداية من عنده وقتها. كان السؤال على وجه أكثر دقة: كيف اختار الاثنين اللذين أصبحا بعد أربعين عامًا «همَّ اللي حيلتنا» واللذين نفخر بهما؟

قال شنودة: «بخلاف لمعة الطموح في عيون منير ودياب، جاء كل واحد منهما ووقف أمام بابي بعد أن حرق جميع مراكب العودة إلى الخلف، جاء كل واحد منهما لينجح فقط، ولم يكن في حساباته أي احتمالات أخرى. استسلما للتجربة، والخطأ، والفشل، والعودة من الجديد، وترجمة كل إحباط إلى خبرة تنفع لخطوة قادمة. لم يضع أحد منهما في باله إجابة عن سؤال «لو فشلت هاعمل إيه؟»، لأن الفشل لم يكن مطروحًا من أصله».

سألته: «هل الموضوع بهذه البساطة؟».

قال: «يُصبح النجاح سهلًا عندما تُقرِّر بينك وبين نفسك أنك لا تمتلك خيارًا غيره. ساعتها تتحول الحسبة التي يراها الناس معقَّدة، إلى حسبة في بساطة «شاف القطة، قالها بسبس، قالتله نونو»».

يتمنى الواحد لو أن كل شيء في الحياة في بساطة «شاف القطة، قالها بسبس، قالتله نونو». معجزة هذه الأغنية أنها بلا آلة إيقاع واحدة. الأغنيات القديمة عمرها أطول لأن صناعها تركوا بداخلها ما يستحق التأمل، رغبة في أن يشاركهم الناس الدهشة. وهذه ليست دعوة لمقاطعة الجديد، الشائع هو التخلص من القديم. زفة الأفراح التي

تقوم على صفين متقابلين يحملان السيوف ليست صدفة، هي رسالة أن العروسين «قطعا» علاقتهما بالماضي، وهي غالبًا فكرة ابتدعتها «نفيسة الفكهانية» أول راقصة منظمة تؤسس فرقة محترفة لها شكل وراقصات، وكانت تحيي ليالي الكبار في عهد محمد علي. تزامن ظهور أول راقصة محترفة مع ظهور أول مخبر (شرطة سرية) في مصر «أحمد أغا». كان أغا رئيس جهاز المخبرين السريين. كان الرئيس، ونشر رجاله في كل مكان، وكانوا مزعجين، واشتكى منهم الناس كثيرًا، ليؤسسوا بهذا الأداء طريقة عمل المخبرين حتى يومنا. سيوف الزفة التي ترمز لقطع العلاقات السابقة قد تكون مشتعلة أحيانًا، ذلك لأن هناك علاقات عايزة الحرق.

مثل علاقة الجنرال «مينو» الفرنسي الذي أسلم ـ بعد أن أعفاه المشايخ من الختان ـ ليتزوج زبيدة ابنة رشيد، وتفانى في تدليلها، لدرجة جعلت المصريات يتقدمن بشكاوى إلى رئيسه «بونابرت» ليرغم الأزواج على معاملة نسائهم بالطريقة نفسها. كان يطعمها بيده، ويرفع لها عن الأرض منديلها إذا وقع. كان مغرمًا، وإن كان يشكو لصديق في رسالة قائلًا: «لن أُكرر الزواج على الرغم من أنه حقي الشرعي، لأن للمسلمات شهوة

عنيفة». ثم رحلا معًا مع انتهاء الاحتلال الفرنسي. بعدها زار رفاعة الطهطاوي باريس، والتقى عجوزًا شهدت نهاية المأساة، وحكت لرفاعة الطهطاوي كيف تحلل «مينو» من إسلامه، وعمَّد ابنه على الرغم من معارضة الزوجة، وكيف ضغط «مينو» حتى تنصَّرت زبيدة نفسها أصلًا، ثم هجرها إلى إيطاليا في رفقة الراقصات، وتركها تموت مهجورة تعاني العوز.

بدأ «مينو» عاشقًا بالثُّلث (وهو نوع الخط المعتمد للأوراق الرسمية في مصر الخديوية)، وانتهى بهيئة «أبو رِجل مسلوخة» (وهو نصف إنسان، ونصف حمار، وله ديل وساقان مسلوختان).

فشلت زبيدة في أن تحوط على زوجها، ولم تتعلم من «دلوكا» التي حوطت بلد بحاله. وهي حكاية رواها المقريزي، ولكنْ هناك إصرار على كونها أسطورة: بعد غرق فرعون وجيشه، لم يبقَ في مصر غير النساء والعبيد والأطفال. اختارت النساء إسناد الحكم إلى امرأة عمرها مائة وستون عامًا وتتمتع بالحكمة، اسمها «دلوكا بنت زبا». وكان أول قرار لها هو بناء سور يحيط بمصر من أسوان إلى العريش، ليحمي البلد من الغزاة، خصوصًا أنها بلا جيش، وأحاطت السور بخنادق مائية، وعيَّنت

حراسًا لقرع الأجراس عند وجود خطر. وقال أحد المؤرخين العرب قديمًا: «لو بُني سور بين المصريين والعالم لاستغنوا عنه إلا للحج إلى مكة». المهم، لم يعثر أحد فيما بعد على أي أثر للسور، كما لم يُعثر على اسم «دلوكا» في تاريخ الفراعنة بعد فك طلاسم حجر رشيد، وإن عثروا على ما يقول إن المصريين القدماء كانوا يستقبلون أول الشتاء باحتفال يقوم على اللطم. وهي العادة التي تغيرت، فلم يعد المصريون يلطمون أول الشتاء، لكنهم يلطمون الآن أول رمضان، وأول المدارس، وأول المصيف، وأول العيد، إلخ.

لا يستطيع الواحد أن يلوم زبيدة. يقول الخواجة إن النساء يملن إلى الوقوع في غرام الرجل «الواطي» بالفطرة. والرجال عمومًا يصعب عليهم، لخطأ تقني، أن ينهوا العلاقات بسلام. عندما طلَّق فاروق زوجته الأولى فريدة (اسمها الأصلي «صافيناز»، لكن الملك أعطاها اسمًا يبدأ بحرف «الفاء» المقدس عند العائلة المالكة. وهي قاعدة عندما كُسرت ودخلت إلى العائلة الملكة نازلي زوجة فؤاد، انتهت الأمور بفضيحة مع سُمعة أن الملكة تعيش حياتها «على كيفها». وهو ما يقول البعض إنه بدأ عندما لاحظت الملكة يومًا أن إحدى وصيفاتها قد انتفخ بطنها،

وكانت الوصيفة قد ترملت في شبابها، لهذا كانت الوحيدة التي تعيش بالقرب من غرفة صاحبي الجلالة، وقد ميَّزت الملكة سبب هذا الانتفاخ بسهولة، ليبقى السؤال: هل كان سيتغير تاريخ مصر لو أن هذا المولود تولَّى الحكم بدلًا من فاروق؟ كيف كانت ستسير الأمور تحت قيادة شخص «ابن حرام»؟). المهم، عند طلاق فريدة استدعى الملك شيخ الأزهر المراغي، وطلب منه فتوى بأنه لا يجوز لفريدة أن تتزوج رجلًا آخر، فرفض المراغي، فقال له فاروق سأبحث عن شيخ آخر، فقال له المراغي اعتبرني مستقيلًا. كانت الفتوى مستحيلة، فاستبدل بها فاروق أن رشَّح بنفسه لفريدة خمسة عرسان، اختارت منهم واحدًا أسعد فاروق أنه صديق له. كانت فريدة محبوبة لأنها على الرغم من كونها بنت ذوات، فإن اختلاطها في المدرسة طفلة مع أبناء الشعب رسَّب في نفسها التواضع، وكانت الوحيدة في القصر التي تنادي الوصيفات بـ«أبلة»، وتسربت محبة العاملين في القصر لها إلى الشارع، لذلك عندما وقع الطلاق هتف الشعب وقتها: «خرجت الطهارة من بيت الدعارة»[1].

سُمعة «بيت الدعارة» التي طالت القصر الملكي، جعلت اللواء محمد نجيب يظهر في أول صورة رسمية

له وهو يفترش حصيرة فوق السجاد الفاخر، ويؤدي الصلاة في أحد صالونات قصر عابدين عندما دخله للمرَّة الأولى.

كان فاروق قد حاول أن يرمم سُمعته التي جعلت الشعب في إحدى ثورات غضبه يهتف: «أين الغذاء والكساء يا ملك النساء». ولكن جاءت محاولة فاروق متأخرة جدًّا، فقد نشرت جريدة «الأهرام» يوم ٢٢ يوليو ١٩٥٢ خبرًا يقول: «عقدت اللجنة التي عهد إليها الإشراف على توزيع المصحف الشريف الذي تفضَّل جلالة الملك فاروق فأمر بطبعه وتوزيعه على المسلمين في مختلف الأقطار، اجتماعًا في الأزهر الشريف برئاسة فضيلة الشيخ عبد الرحمن حسين وكيل الأزهر، وبحثت الأسس التي سيتم بناء عليها توزيع المصحف الشريف في كل أنحاء العالم».

في هذا اليوم أيضًا، وهو بالمناسبة آخر يوم عاشته مصر في «الملكية»، أو بمعنى أدق: آخر يوم لحكم الملك فاروق، كانت مصر تحتفل باكتشاف منطقة اسمها «العجمي»، وتقرَّر ضمها إلى كردون مدينة الإسكندرية مع توفير التمويل اللازم لإقامة مصيف جديد به كل المؤسسات والمنشآت اللازمة، مع فكرة أن هذا المصيف

الجديد سيخفف الضغط على مصيف رأس البر الذي أصبح في حاجة شديدة إلى التطوير.

ونشرت الصحف تنبيهًا على السيدات اللواتي سيسافرن لأداء مناسك الحج، وحسب المعروف عن بعض السيدات حبهن للسفر بمصوغاتهن، ونظرًا إلى أن تصدير المصوغات ممنوع، فقد ناشدت الداخلية عبر بيانها السيدات أنه «لا بد من تسجيل الذهب الذي ستسافر به الحاجة، ودفع مبلغ تأمين يعادل ثمن هذه المصوغات، والاحتفاظ بقسيمة المدفوعات الجمركية لاستعادة المبلغ بعد التأكد من عودة الحاجة بكل المصوغات».

وطمأنت الصحف المسافرين إلى الحج أن المصريين الموجودين في السعودية تحققوا من انتهاء حالات الإصابة بالطاعون التي انتشرت هناك مؤخرًا. والمصريون الموجودون هناك كانوا ينهون عملهم في تأسيس أول شبكة اتصال تليفوني سلكي وتلغراف في المملكة، وقد أصبحت المملكة بفضل عمل هؤلاء الرجال قادرة على الاتصال بالعالم الخارجي وبين مدنها وبعضها بعضًا.

وفي الوقت الذي احتفت فيه الصحف بإذاعة أولى

حلقات البرنامج الإذاعي «لغة الموسيقى»، الذي تُعده السيدة آمال فهمي، ويُقدِّمه محمد عبد الوهاب، ويذاع كل يوم في التاسعة مساء، كانت الصحف أيضًا تندب حظ مدن الصعيد التي وصلت إليها البلهارسيا، ولم يكن هذا متوقعًا، فقواقع البلهارسيا لا تعيش إلا في المياه الراكدة، وهذا سبب انتشارها في الدلتا، لكن علميًّا كان مستحيلًا أن تظهر في الصعيد مع جريان النيل المستمر، وخمَّن العلماء أنها وصلت إلى هناك في شباك الصيد التي اشتراها الصعايدة من الفلاحين.

مثلما ناشدت الصحف الناس أن يمنعوا قططهم وكلابهم من الخروج إلى الشوارع، لأن وزارة الزراعة أعلنت بداية عمل فرق خاصة عيَّنتها لقتل الكلاب والقطط الضالة التي انتشرت في شوارع القاهرة، في الوقت نفسه أعلنت عن بدء توزيع بطاقات التموين للمصطافين في الإسكندرية من مراقبة تموين الرمل، وعددها ثلاثة آلاف بطاقة ستخدم أكثر من خمسة عشر ألف شخص يقضون المصيف في الثغر مع تمنيات وزارة التموين لهم بإجازة سعيدة.

المهم، تعامل الملك فاروق مع مستقبل طليقته بذكورية بالغة، يقول الأكابر: «المرأة ليست ضعيفة، ولكنها

مستضعفة»، لأن الرجل بطبعه مغرور. حتى إنه أيام محمد علي كان العقاب الأمثل للتاجر الغشاش هو «كسر نِفسه»، فكانوا يركبونه جملًا ويضعون في يده جرسًا يجلجل به، وهو يطوف في البلد ويصيح: «لقد غششت، لعنة الله على الكاذبين». ولكن غرور الرجل مفيد لأنه كان مفتاح الاستكشافات والاختراعات التي حدثت منذ بداية البشرية، وهو أيضًا مصدر جاذبية، يمكن ملاحظتها بداية من الزعيم أحمد عرابي[٢] الذي استلم رسالة من إحدى هوانم العائلة المالكة تعرض نفسها عليه كزوجة باعتباره منقذًا لمصر، فرد عليها قائلًا: «الزمي بيتك، واهتمي بشؤونك»، أو في انهيار سعاد حسني أمام «تُقل الواد حسين فهمي»، مرورًا بأداء كاتب عظيم مثل «مارك توين» الذي كان في فراش الموت والنافذة مفتوحة آخر اليوم، فتأمل المشهد قائلًا: «شمسان تغربان في وقت واحد!».

هامش ١

بدأت أخلاق الملك فاروق تتحول إلى سيرة على ألسنة الناس بعد حادث فبراير، عندما حاصرت قوات الاحتلال

البريطاني قصره، وأرغمته على تنفيذ مطالب سياسية (التوقيع على قرار باستدعاء زعيم حزب الوفد مصطفى النحاس لتشكيل الحكومة بمفرده، أو أن يتنازل عن العرش). أصيب فاروق باكتئاب بعد هذه الواقعة، فتضامن الأمراء والأميرات معه، وتباروا في إقامة السهرات والحفلات الشاذة والماجنة للتخفيف عنه ـ على حدِّ قول الملكة فريدة ـ وقاموا بعمل جدول لهذه الحفلات في قصر الأميرة شويكار، وفي حلوان، والمرج، وأنشاص، وتباروا في كل ما هو جديد ومثير. وتقول فريدة إن هذه الحفلات كانت بداية سقوط الملك، بل سقوط أسرة محمد علي التي عصف بها التفكك والانحلال.

هامش ٢

لم يثر زعيم الجدل بسبب زيجاته مثلما فعل الزعيم أحمد عرابي. بدأ بابنة خالته وأنجب محمد، ثم طلَّقها لأنها تسببت بإهمالها في أن يفقد طفله البصر. ثم تزوَّج شقيقة طباخ من قلعة الكبش وطلَّقها. ثم تزوَّج «صديقة» ابنة مرضعة أبناء الخديو عباس، وأنجبت له أربع بنات. ثم تزوَّج زينب هانم التي اصطحبها معه إلى المنفى، واصطحب أيضًا محمد ابنه وجاريتين (فرح وزعفران). تزوَّج زعفران، ثم طلَّقها لأنها أدمنت مضغ التبغ في المنفى. ثم تزوَّج فرح التي كانت لا ترتدي إلا ملابس الرجال، وطلَّقها بعد العودة من المنفى. ثم أعاد

«صديقة» إلى عصمته. بخلاف إحدى هوانم العائلة المالكة التي طاردت عرابي بالرسائل، كانت هناك من بين نساء الجالية الأجنبية في مصر من يحضرن جلسات محاكمته ويُعلنَّ تأييدهن له وينتظرن منه نظرة رضا.

ماذا كان يقصد فؤاد حداد بـ«الوز الأخضر» الذي كان يصلي على «القنايا من سينا»؟

كنا شلة ذات مكانة مرموقة في المدرسة الإعدادية، لا لموهبة، ولكن لأن الأستاذ عماد مدرس الألعاب افتتح كُشكًا لبيع أشرطة الكاسيت المقلَّدة. كان في البداية يشتريها من القاهرة، ثم قرر أن يُسجِّلها ويطبعها بنفسه، ووضع على الأشرطة مُلصقًا باسم شركة التسجيلات التي أنشأها: «شركة تسجيلات المدينة المنورة».

كان الأستاذ عماد يعتمد على شلتنا الثلاثية في استعارة أشرطة الكاسيت الأصلية التي كان أهالينا يشترونها لنا، ليقوم بنسخها، مقابل ذلك كان الأستاذ عماد يُطلق علينا لقب «الفنانين»، ومنحنا امتيازات تافهة، مثل تشكيل فريق الفصل واختيار اللاعبين.

كان فريد زميلنا في الفصل زعيم عصابة مراهقًا، أزعجه

أننا استبعدناه من اللعب، فزنقنا بعد المدرسة مع أفراد عصابته. كان تافهًا لدرجة أنه لم يعرف ما الذي يجب أن يفعله بعد أن استسلمنا له. اختار أضعفنا (الحَسن) وطلب منه أن «غنِّ». أثار طلبه دهشتنا. «مش إنتو فنانين.. غنِّي.. وإنتو هتغنوا معاه». ثم أمسك الحَسن من أذنيه ورفعه عن الأرض مكررًا طلبه: «غنِّ». فبدأ الحَسن يقول بصوت مرتعش: «تعالى نلضم أساميا». أنقذنا ظهور وكيل المدرسة قادمًا من بعيد. هرب أفراد العصابة، وبدأ الحَسن يبكي، والوكيل يحاول أن يفهم ما الذي يحدث ـ دون جدوى ـ حيث كنت أنا وصديقي الثالث غارقين في الضحك، لأن الحَسن على الرغم من بكائه وانتهاء الخطر، ظل تحت وطأة الخوف الذي اختبره، مستمرًّا في الغناء لاإراديًّا، وغير قادر على التوقف.

لسنوات بعد هذه الواقعة، كلما هممنا بحكيها لشخص غريب في وجود الحَسن، كان يقاطعنا ويُصر على أن يحكيها هو شخصيًّا، وكان يؤكد أن الخوف لم يتسلل إلى قلبه بسبب مقاسات أفراد هذه العصابة التي لا تتناسب مع حقيقة أعمارهم، كان يقول إنه خاف عندما لاحظ أن أحدهم يتحدث إليه بمنتهى الثقة بينما يتدلى من فتحة أنفه خيط مخاط أخضر لا يشعر به ولا يؤرقه بخصوص

مظهره. يقول الحَسن: «أنت أمام شخص «مستبيع»، وهو أخطر شخص يمكن أن تخوض معه في أي إشكالية من أي نوع». ثم فسَّر اختياره لأغنية «تعالى نلضم أساميا» بأنه في عقله الباطن كان يستنجد بأهل المدن التي رصَّها الشاعر فؤاد حداد في الأغنية.

لم يكن فؤاد حداد يقصد مجرد رص للمدن في «تعالى نلضم أساميا». كان يسألك: هل تعرف شيئًا عن هذه الكواكب؟ زرت كم واحدة؟ هل تعرف مَن هو «الوز الأخضر» الذي كان يصلي على «القنايا من سينا»؟

قيمة الفن موجودة في مَا لا يُقال لك مباشرة، وتأثير الفن أكثر تعقيدًا مما يتخيل أحد. لو عرف كل فنان أثر ما يقدمه لمات رعبًا، أو لتعامل مع الموضوع بجدية أكبر.

يقول «برنارد شو»: «العاقل يتكيف مع العالم، والفنان يجعل العالم يتكيف معه».

عندما اعتصم فنانو مصر في نقابتهم في بداية الثمانينيات اعتراضًا على قانون انتخاب النقيب، جرى تكليف مخبري المباحث بمراقبتهم، وجاء في تقرير أحدهم: «في تمام الساعة كذا دخل قناوي وحورية وجلسا لنصف ساعة مع سمارة». وبعد استخدام كل معاجم فك الشفرات اتضح أن المخبر يقصد يوسف شاهين في «باب الحديد»، وفردوس

عبد الحميد في مسلسل «عصفور النار»، وتحية كاريوكا. هو يُصدِّق أنها شخصيات من لحم ودم، من فرط تغلغل تأثيرها فيه.

عندك «الأسطى حميدة» مجرد عالمة أفراح، أو هكذا يراها العامة، يقول توفيق الحكيم إنها ـ بأغنياتها وصوتها الشجي وعزفها ـ كانت أول من لفت نظره للفن، وأثارت اهتمامه فبدأ الطريق.

وكانت فرنسا تبحث عن مدخل تفتت به المصريين أثناء عدوان ١٩٥٦، ولم تجد غير الفن، فبدأت تخاطب عبر الإذاعات الموجهة أقباط مصر قائلة إن الحكومة لا تعترف بهم لأن النشيد الوطني والرسمي للمعركة يبدأ بـ«الله أكبر».

كان عبد الناصر بعد النكسة يحب أغنية «عدَّى النهار»[1]، وعندما تغيب قليلًا يتصل برئيس الإذاعة يسأله الغنوة فين. كانت بالنسبة إليه أفضل ما يمكن أن يرفع اليأس عن الناس. وفي زيارته لدولة عربية صافحه مواطن، وطلب منه: «سلملي على إسماعيل يس»، بعدها كان ناصر ـ الذي اعتاد مشاهدة الأفلام في قاعة منزلية ـ موجودًا في افتتاح فيلم «إسماعيل يس في البوليس الحربي»، يتأمل صاحب الأثر العابر للحدود وهو يصرخ «يا دهوتي» (و«الدهو» هو العقل، و«يا دهوتي» استغاثة به ليتعامل مع المصيبة).

يُنهي كل صاحب مهنة عمله بسؤال يشبه الهدف مما يقدمه، فيسألك المحاسب: «مضبوط؟»، ويسألك الطبيب: «أحسن؟»، ويسألك وكيل النيابة: «هل لديك أقوال أخرى؟». وحده الفنان الذي يسألك عندما يُنهي عمله: «اتبسطت؟».

المطرب العالمي ذو الأصول المصرية «ديميس روسوس» (ابن الممثلة نيللي مظلوم بطلة العصابة في «ابن حميدو»)، كان على متن طائرة ركاب أمريكية اختُطفت عام ١٩٨٥، وعلم المختطفون بوجوده، وعرفوا أنه في طريقه لقضاء عيد ميلاده مع أسرته في اليونان، فأقام المختطفون له احتفالًا بعيد ميلاده على متن الطائرة مع بقية المختطفين. كسرت المحبة تحفز المختطفين فسهل استسلامهم.

وكان فيلم «شيء من الخوف» على وشك المنع، لكن ناصر تدخَّل شخصيًّا وسمح بعرضه بعد أن عرف أن منتج الفيلم أنشأ «هاويسًا» لأهل القرية التي صُوِّر الفيلم بها، وكان الهاويس هو شرط عمدة القرية للتصوير ومشاركة الفلاحين في التصوير. كان الهاويس الذي فتحته شادية لـ«يبل ريق» الأرض العطشانة حقيقيًّا، فالتف الناس حولها بصدق وبدون تمثيل.

وفي عام ١٩٨١، بينما الرئيس السادات مشغول في لمِّ

المعارضين من كل الاتجاهات وكُتَّاب الرأي والصحفيين والمثقفين، ومتوتر، و«خايف ليكون نسي حد»، لإيداعهم جميعًا في السجون بقرارات سبتمبر الشهيرة، وصل في الوقت نفسه إلى مصر المطرب العالمي «خوليو إجلسياس» لإقامة ثلاث حفلات في مصر، فترك السادات «كل اللي في إيديه» واستقبل المطرب الرومانسي بنفسه في بيته، وأظهرت الصور الجلسة التي تجمعهما مع جيهان السادات. بالغ السادات في كرم الضيافة لدرجة ظهور شائعة في الصحف الإسبانية عن قصة إعجاب متبادل بين خوليو وابنة الرئيس.

وفي الثلاثينيات ثارت مصانع الملابس الداخلية على الممثل الأمريكي «كلارك جيبل»، لأنه ظهر في أحد أفلامه بدون فانلة داخلية على عكس الشائع، فصار «القميص على اللحم» موضة، وكانت خسائرهم فادحة.

وعند وفاة أم كلثوم ارتبك الجميع، ولم تعرف الدولة كيف يمكنها أن تُعبِّر عن حزنها. فخرج يوسف السباعي وزير الثقافة على الشاشة ينعي الفقيدة. وافتتح مجلس الشعب، للمرَّة الأولى في تاريخه، جلسته بدقيقة حداد على روحها. واستجابت الدولة لطلب الأمير عبد الله الفيصل بتأجيل الغُسل حتى يرسل من السعودية كمية من ماء زمزم تكفي للمهمة.

وكان حليم ضيف الإذاعة في المغرب عندما وقع انقلاب على الملك، وهجم المنقلبون على الراديو، وطلبوا من حليم أن يُذيع بيان الثورة للأمة العربية، واعتبروها فرصة ذهبية ستقرب المسافات، لكنه بذكائه، كفلاح مصري، راوغ وظل حبيسًا حتى وصل جنود الملك بعد فترة.

قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية، لاحظت المخابرات الإنجليزية أن هناك أشخاصًا يُشتبه في أنهم عملاء للجيش الألماني، يقومون بجمع كل ما يصادفونه من أسطوانات أم كلثوم وعبد الوهاب من أسواق القاهرة والقدس وبيروت ودمشق، وخمنوا أن الألمان يستعدون للحرب بمخاطبة المصريين عبر الإذاعات، وليست هناك وسيلة لجر أرجل المستمعين سوى بإذاعة أغنيات هذين الشخصين. بناءً عليه كان جزء من خطة الإنجليز في حالة انتصار الألمان واضطرار الإنجليز للخروج من مصر، هو اختطاف أم كلثوم وعبد الوهاب، وتهريبهما إلى خارج البلد، لاستخدامهما في استعادة التواصل مع المصريين من خلال الإذاعات الموجهة.

و«الوز الأخضر» الذي كان يقصده فؤاد حداد هم جنود الصاعقة الذين كانوا يرتدون الأخضر المموَّه في حرب الاستنزاف[٢] وفي حرب أكتوبر، وشبههم بالوز

لأنهم كانوا أصحاب رقاب طويلة وعفية، أطالت فيما بعد رقابنا جميعًا.

هامش ١

كان عبد الحليم مترددًا في تقديم أغنية «عدَّى النهار»، وقال إنه غنَّاها بعد أن رأى نفسه في الحلم ثلاث مرات يُغنيها وهو محمول فوق أعناق الناس مرتديًا جلبابًا أبيض والناس يطوفون به في ميدان التحرير. قال إن هذا لم يحدث له مع أي أغنية من قبل، منذ ظهوره الأول الذي سألوه فيه عن المطرب الذي يحب أن يكون مكانه مستقبلًا، فقال: «عبد العزيز محمود». (الأغنية كلمات الأبنودي، وألحان بليغ حمدي، وتوزيع عبد الحليم نويرة، وقُدِّمت للمرَّة الأولى في ٢٢ يوليو ١٩٦٧).

هامش ٢

نظرة محدودة التي تتوقف عند أكتوبر، ولا ترى معجزات حرب الاستنزاف.

مَن يقلِّب أوراق التاريخ سيعرف أن النكسة كانت مسألة أيام قليلة، نتجت عن قيادات ليست لديها فكرة لا عن الحرب ولا عن الانسحاب، ثم حدث أن أُزيحت هذه القيادات، وبعدها

بأيام عاد الجندي المصري إلى مواقعه ليبدأ رحلة الانتصار العظيمة التي استغرقت ست سنوات، شهدت بطولات إذا ما قُورنت بنصر أكتوبر فستعرف أن الأخير على عظمته كان أقلها شأنًا، إذا وضعت في حساباتك أن رحلة الانتصار التي بدأت عقب النكسة بأيام كانت بجيش فقد أكثر من ٨٠٪ من معداته بخلاف خسائر الأرواح.

بعد أيام من النكسة حدثت معركة «رأس العش» الشهيرة، حيث تقدمت مدرعات إسرائيلية لاحتلال بورفؤاد، لتجهز على ما تبقى من معنويات المصريين، لكن فصيلة صاعقة من ثلاثين جنديًّا يحملون أسلحة خفيفة كسبوا المعركة معنويًّا وحربيًّا بدرجة جعلت إسرائيل تتوقف عن التمادي في استعراض قوتها. بعدها بأشهر قليلة أُغرقت المدمرة إيلات بصاروخين بحريين انطلقا من زوارق في بورسعيد، وكانت الصدمة قوية، وكان هذا أول استخدام للصواريخ البحرية في التاريخ ترتبت عليه إعادة النظر في استراتيجية الحروب البحرية. ثم سقط جهاز المخابرات المصري القديم، وبدأت التحقيقات العلنية في قضية انحرافه، وكذلك التحقيق مع وزير حربية النكسة وقادة الطيران. وعندما حصلوا على أحكام هزيلة، خرج الشعب الذي سبق له أن قال لناصر لا تتنحَّ مُعقِّبًا على نتيجة المحاكمات بهتاف: «ولا صدقي ولا الغول عبد الناصر هو المسؤول». الشعب أيضًا تجاوز المحبة العمياء، وخرج يرش الزعيم بالماء البارد ليفوق. فاق الزعيم وغيَّر قياداته، وأطلق ميثاق ٣٠ مارس

المصحِّح لارتباكات الدولة. ثم بدأت حربيًّا مرحلة «الدفاع النشط»، وهي طريقة حرب تنقل مصر من الدفاع إلى الهجوم بالتدريج، اعتمادًا على المدفعية الثقيلة التي دكَّت الأهداف الإسرائيلية بشكل أثار جنون إسرائيل، ودفع القيادة لتهجير أهل القناة حماية لأرواح المدنيين في تلك المعركة المشتعلة التي جعلت «ديان» يصرخ قائلًا: «سأجعل منطقة القناة مقبرة مصرية». وعندما فشل، قرر أن يضرب العمق المصري انتقامًا، فأغار على أحد مصانع نجع حمادي.

كانت قوات «الكوماندوز» تتسلى يوميًّا بالعبور إلى الضفة الشرقية وتدمير معسكر للعدو، إلى أن تم العبور الأول المنظَّم قبل أكتوبر بأربع سنوات عند لسان التمساح بالإسماعيلية، ذهب الجنود، وعادوا كاملي العدد، يحملون علم الموقع الإسرائيلي الذي ساووه بالتراب. هنا لجأت إسرائيل إلى مجلس الأمن للمرَّة الأولى في أبريل ١٩٦٩ ليضغط على مصر لوقف القتال في منطقة القناة. في هذه اللحظة كان ناصر يقول في خطاب عيد العمال في حلوان: «تم تدمير ٦٠٪ من تحصينات العدو في خط بارليف، ولن نسمح أن يتحول خط النار إلى خط ثابت تقف عليه إسرائيل مستريحة». بعدها بأيام، حاولت إسرائيل عبور القناة إلى الضفة الغربية، فأُغرقت زوارقهم، وأعلنت مصر الخبر، فنفت إسرائيل بقوة، فطلبت مصر من هيئة الصليب الأحمر أن تتسلَّم رسميًّا جثة أحد قادة الزوارق الإسرائيلية.

كان العبور إلى ما خلف نقاط العدو أمرًا شبه يومي لدرجة مربكة، بحريًّا بعملية «إيلات» الشهيرة، وبريًّا بمئات المعسكرات التي دُمرت. أما المدفعية، فلم تترك لإسرائيل نصف فرصة لإعادة ترميم خسائر خط بارليف بتحصيناته ومنصات صواريخه ورادارته. عند هذه النقطة فقدت إسرائيل أعصابها، فبدأت في قصف أهداف من نوعية مدرسة «بحر البقر».

كان كل هذا يحدث في وقت بلغ فيه ضعف الموارد أن أصبحت الصحف المصرية تصدر في أربع صفحات فقط. وبينما ناصر يحارب للحصول على دعم السوفييت في مجال التسليح، نجحت مفاوضاته نسبيًّا لدرجة أن إسرائيل بررت عدة هزائم متلاحقة في الشهور الأخيرة بأن طيارين سوفييت شاركوا في الدفاع عن عمق مصر. ولولا أن مصر كانت صاحبة الكفة الأرجح في هذه الأيام، ما طرحت أمريكا مبادرة «روجرز» لوقف إطلاق النار لثلاثة أشهر. كانت مصر متفوقة، وكانت أمريكا تريد لصديقتها أن تلتقط أنفاسها. وقبِل ناصر المبادرة لاستكمال بناء حائط الصواريخ أرض جو، الحائط الذي كان المفتاح الأهم على الإطلاق في انتصار أكتوبر.

الحكايات التي تقول إن النكسة كانت مجرد كبوة لجواد أصيل، لا تنتهي، وهي بعرض ست سنوات لم تخلُ من انكسارات من نوعية رحيل ناصر المفاجئ، وتخلي الأصدقاء، وضعف الحالة الاقتصادية.

الموضوع أكبر من ٦ أكتوبر، وأن الجيش المصري ربما تعثر في الطريق، لكنه لم ينهزم، كان وصف النكسة هو الأصدق، إذ إن الجنود الذين خرجوا من سيناء في ٥ يونيو سيرًا على الأقدام، هم أنفسهم الذين كانوا يعودون إليها في اليوم مرَّة واثنتين على مدار ست سنوات.

من ألصق بالدمايطة صفة البخل؟

شعر الكاتب الكبير مصطفى أمين بالتعب، فتوجَّه إلى المستشفى، وقرر الطبيب أن يحتجزه، وأدخله غرفة وطلب منه أن يستريح، وقال له مداعبًا: «هل تعرف من كان ينام قبلك هنا وخرج بالأمس؟ فاتن حمامة». فاشتعلت حاسة «الترافيك» عند مصطفى أمين ـ كعادة كثيرين الآن ـ وكان مقاله التالي بمانشيت كبير: «أكتب لكم من سرير فاتن حمامة». وفي اليوم التالي هجمت عليه الفنانة الكبيرة منفعلة لأنها ـ كعادة كثيرين الآن «ما بيفتحوش اللينك» ـ اكتفت بقراءة العنوان.

كانت عندي مشكلة في طفولتي مع الفنانة، فاسمها مذكر (فاتن)، بينما اسم الأب مؤنث (حمامة)، وكان المنطقي بالنسبة لطفل أن يكون اسمها «حمامة فاتن»، فتعطل تدفق موهبتها بالنسبة لي. ثم تجددت المشاكل

كبيرًا، عندما قرأت حوارًا تُجري فيه سيدة الشاشة مقارنة بين ناصر والسادات، وتختصر المقارنة بشكل مُخلٍّ لصالح السادات في «الفلوس»، قائلة إن «ناصر فقر الناس، بينما في عهد السادات كانت الناس بتلعب بالفلوس لعب». وهو تصريح لم يشرح مصدر هذه الأموال التي كانوا يلعبون بها. بالضبط مثل الحكومة عندنا، تتحدث عن حجم الإيرادات في الموازنة لكنها لا تبين مصدرها، ربما خوفا من الـ«أر». أرَّ الشخص: مشى بطنه وتتابع (وهو التعريف الأدبي للإسهال)، أي أن الشخص الذي أرَّ على شيء قام بالتخلص من فضلاته فوقه (زي اللي أرُّولنا على ٢٥ يناير كده)، كلمة فصحى، بخلاف «قرفته حلوة» وهي عامية، وتعني حُسن الحظ، ومستقاة من كبار المقرئين زمان عندما يشاركون في مأتم عزاء، ويطلبون قبل القراءة قرفة مغلية تجلي الصوت، وإذا شعشع المقرئ وتسلطن كان يفسر السلطنة بأن الميت كانت «قرفته حلوة».

يخاف حيوان النمر من القرفة ويهرب منها، مثلما كان كهنة مصر القديمة يخافون من «الفول» ويعتبرونه طعامًا نجسًا ويمنعون دخوله المعبد، حسب «هيرودوت». يقول «هيرودوت» أيضًا إن «الكهنة وحدهم كانوا يحصدون الامتيازات التي يحصل عليها المحاربون، وكانت امتيازات

المحاربين مصدر تعجب الناس». يقول «هيرودوت»: «يوهب كل محارب اثني عشر فدانًا، وخمسة أرطال مجانية من الحنطة يوميًّا، لأنه يحمي المملكة».

لا يعرف الواحد لماذا يُقال عن الفول «مدمس». هناك رواية تقول: «دمس» الشيء بمعنى أخفاه تحت غيره، كما يخفي الواحد الفول في الدماسة تحت الماء وملعقتَي العدس الأصفر. وهناك رواية أن أول مستوقد للتدميس كان مملوكًا لخواجة يوناني اسمه «ديموس»، فأصبح الفول على طريقة «ديموس»: «مدمس».

أنقذ الفول (السوداني وليس المدمس) السوايسة أثناء حصار المائة يوم. الصهاينة يحاصرون المدينة بعد ضرب كل مخازن السلع التموينية، ما تبقى من دقيق كان يكفي لتسليم كل مواطن رغيفًا يوم السبت ورغيفًا يوم الثلاثاء، ندرة الغموس جعلت السوايسة يأكلون الخبز بالطرشي والبصل والفول السوداني.

لم يكن الخبز هو الأزمة الوحيدة التي تعامل معها السوايسة بمهارة ثبتت أقدام الجنود الذين عبروا إلى الضفة الشرقية قبل بداية الحصار بأيام.

في طريق الصهاينة إلى السويس، ضربوا مواسير المياه الرئيسية، فكان أول قرار للقيادات المدنية هو قطع المياه عن

المدينة طوال اليوم ما عدا ساعتين، من ٩ إلى ١١، مع التأكيد على تخزين ما يلزم للاستخدامات الأساسية فقط، ونزح ماء القناة لأي احتياجات أخرى، الاستحمام والتنظيف مثلًا.

ثم صدر قرار بصرف نصف لتر فقط يوميًّا لكل مصاب محتجز في المستشفى العام. وعندما اعتمد طاقم التمريض على ماء البحر في تنظيف الجرحى ظهرت مشكلة أن الماء المالح لا يصنع رغوة عند خلطه بالمطهرات والصابون الطبي، أو حتى لغسل ملابس وغيارات الجرحى. وبدأت أعراض الأمراض الجلدية تظهر على الجرحى، وسرى ذعر من فكرة انتشار وباء في المدينة. فتم نقل هؤلاء الأشخاص إلى مبنى وأطلقوا عليه «مستشفى المجاديف»، لأن المصابين بالأمراض الجلدية كانت تصيبهم نوبات حك وهرش تجعل الشخص يبدو كأنه يجدف في مركب. إلى أن حدثت المعجزة، وتوصَّل بعضهم إلى فكرة تسخين ماء البحر إلى درجة الغليان، واستقبال البخار على مشمع بلاستيك، وتجميع الناتج الذي سيكون أقل ملوحة بدرجة تُفعِّل المنظفات. نجحت التجربة، وتوافدت نساء المدينة على المستشفى في ورديات للغسيل والتجفيف.

واختار الشيخ حافظ سلامة مجموعة وعلَّمها التيمم، ثم انطلقت المجموعة تُعلِّم بقية أهل المدينة المحاصرين.

ثم بدأ يظهر الجوع، وكان المخزون المتاح بعد حصره يسمح بخطة توزيع مرَّة كل خمسة عشر يومًا، يحصل الفرد في كل مرَّة على «علبة خضار، علبة سردين، باكو شاي، نصف كيلو سكر، علبة سمك مجفف»، مع احتمالات كبيرة ألا يكفي المخزون لمرَّة ثانية. ولكن كل هذا لم يمنع أهل السويس عندما أُعلن عن أن اليوم التالي هو عيد الفطر من خبز الكحك والبسكويت. سهرت سيدات المدينة يخبزن بالمتاح في أفران بلدية كميات تم توزيعها في اليوم التالي على الناس في رفقة حلة كبيرة تمتلئ بالشاي.

ثم ظهرت مشكلة الكيروسين الذي تحتاج إليه الأفران ومحطة الكهرباء التي تُغذي المدينة، وكان قرار الأهالي البحث عن مصدر آخر للوقود، فتم نزع فلنكات خطوط السكة الحديد، وقص أشجار بورتوفيق الضخمة. وبقيت مهمة نقلها من أماكنها، فتم تكوين «مؤسسة عربات الكارو» بقرار من المحافظ، تكون مسؤولة عن نقل الأخشاب والتموين والمعدات والأسلحة، مع قرار بصرف اثنين كيلو تبن لكل حمار.

شالت السويس[1] المسؤولية، مثلما شالت بورسعيد مسؤولية العدوان الثلاثي، وختم البورسعيدية نضالهم بواقعة تذكرني بما جرى في إحدى مباريات دوري الدرجة

الثانية عندنا، عندما أخرج حَكم المباراة للاعب الكارت الأحمر، فما كان من اللاعب إلا أن أخذ الكارت من يد الحَكم وأكله. قبل رحيل آخر سفينة من سفن جنود العدوان وضعوا في يدَي تمثال «ديلسبس» الضخم علم إنجلترا في اليد اليمنى، وعلم فرنسا في اليد اليسرى، ثم دهنوا جسم التمثال كله بمادة بترولية لزجة تشبه الفازلين لإعاقة أي شخص عن الصعود لإنزال العلمَين اللذين تركهما المعتدون للذكرى. وبعد محاولات فاشلة قرر البورسعيدية ببساطة أن يفجروا التمثال، و«جابوه من قفاه»، ولا يزال الجزء الأكبر منه ملقى في مخازن هيئة قناة السويس منذ ما يقرب من سبعين عامًا.

نجح البورسعيدية في صد العدوان، مثلما نجحوا في تشويه صورة «الدمايطة». يقول أهل دمياط: «عقب التهجير (١٩٦٧) استقر عندنا عدد كبير من البورسعيدية. «أكرمناهم»، وعملنا معهم واجب الضيافة من أكل وشرب وحفاوة لمدة يومين ثم أسبوعين ثم أشهر طويلة. وعندما اكتشفنا أن الإقامة ستطول قلنا لهم: «لأ، إنتو تنزلوا تشتغلوا بقى»». فألصق البورسعيدية بالدمايطة صفة البخل انتقامًا لكرامتهم، على الرغم من أن أهل دمياط لم يُقصروا يومًا.

كنا قد استدنا من بعض الدول عند بناء السد العالي، وطلب بعضهم السداد نقدًا، وطلب البعض أن يكون السداد ببضاعة عينية وضعوا لها قائمة كان على رأسها الأثاث الدمياطي. وعندما وصل الخبر إلى الدمايطة سهرت ورش المدينة بكامل صنايعيتها أيامًا طويلة لتسدد ما على مصر.

دمياط[٢] التي زارها «ابن بطوطة» وسجَّل إعجابه بها قائلًا إنها مدينة «سورها حلوى»، لأن حدودها كانت محاطة بأشجار الموز. لم تخذل أحدًا يومًا ما (ما عدا نور الشريف في فيلم «ضربة شمس»). لكن يبدو أن البورسعيدية قد نجحوا في «دمس» كل ما سبق تحت سُمعة البخل. وهم ليسوا بخلاء، ولكنهم شطار. وتقول الأسطورة إن تاجرًا يهوديًّا باع لدمياطي شحنة مشدات صدر حريمي، وعندما فشل الأخير في بيعها قسَّم كل قطعة إلى اثنتين، ثم باع الشحنة للإسرائيلي باعتبارها طواقي للحاخامات.

هامش ١

«نحن لا نسيطر على السويس، إننا نحاصرها، ولكننا لا نستطيع الدخول إليها»، هكذا صرح المتحدث العسكري

الإسرائيلي صباح ٢٥ أكتوبر ١٩٧٣، وكانت كلماته ترن في أذني بينما أدخل السويس للمرة الأولى في حياتي.

ذكَّرني كرم أهل المدينة باستقبال السوايسة للجنود العائدين من الجبهة عقب ٥ يونيو. خرجت المدينة بأكملها لتأخذ الجنود بالأحضان وتخفف عنهم الألم، اقتسموا معهم الطعام على ندرته، ثم خرجت مجموعات من شباب المدينة تخترق المدقات الصعبة ومنطقة الشط ومداخل سيناء بحثًا عن الجنود التائهين أو الذين أسقطهم التعب والعطش. كان العدو على الضفة الأخرى يتابع الموقف بشماتة، وهو يرى المدنيين يحملون الجنود المنهكين، فما كان من أهل السويس إلا أنهم جميعًا، خلعوا الملابس المدنية وارتدوا «الكاكي»، ليقولوا للعدو إن المدينة كلها جنود. وعندما رُفع العلم الإسرائيلي فوق الضفة الشرقية كانت الرسالة موجعة، وكان لا بد من رد. اقترح البعض رفع العلم المصري، ولكن لا معنى لرفعه فوق أرض مصرية، وكان الرد بإدارة ماكينات المصانع المتوقفة ليرتفع في سماء المدينة دخان المصانع عاليًا.

في كل بيت أسطورة: تبدأ بشهيد أحسن استقبال دبابات العدو عند مداهمة المدينة عقب العبور. وتمر برجل مُسنٍّ سحب شباب المدينة في اتجاه بئر مهجورة ليحفروها، تحت وطأة العطش الذي فرضه العدو على المدينة عند حصارها بقطع ترعة المياه العذبة. وتنتهي بأطفال في مرحلة التهجير، استقلوا سيارات النقل المكشوفة مُهجَّرين من المدينة، ليستقبلوا

سنوات حياتهم الأولى غرباء في مدن أخرى، قبل أن يعودوا بعد الحرب. في كل بيت رجل كبير، عندما كان طفلًا عمَّده أهله بأن غطسوه في «ماء الكنال»، ليدبدب فوق مائها بقدميه دبدبة جندي مصري على ضرب السمسمية.

كنت أريد أن أقتلع قطعة من الأسفلت تصحبني في العودة، لكنني اكتفيت بأن أعود بعلَم السويس لأُعلِّقه في غرفتي.

في طريق العودة، كنت أضع العلم فوق شباك باب السيارة ليقيني من الشمس، وطوال الطريق كنت أفكر في العودة تمامًا كالأطفال المهجَّرين.

هامش ٢

استُخدمت دمياط كمنفى للزعيم عمر مكرم.

قبلها بسنوات كان مكرم وجموع المصريين يضغطون على محمد علي لتولي حكم مصر. قبِل محمد علي، واشترط لكي يُطمئن المصريين ألَّا يفعل شيئًا إلا بمشورة الرعية، وأنه متى خالف الشروط وجب عزله، وهم قادرون على ذلك كما يفعلون الآن بتوليتهم له. وهو ما تخلَّى عنه محمد علي سريعًا، فأثقل المصريين بالضرائب والمكوس الاستثنائية، وراح يهدر الحريات والحقوق. وقف في وجهه كثيرون، فقبض على رجال العوام منهم مثل: غريب البقلي، واختار النفي لمكرم، لأنه - حسب تعبير الباشا - «يعاندني، ويُبطل أحكامي، ويخوفني بقيام

الجمهور». وقد سجَّل الجبرتي كيف احتشدت الجماهير تبكي حزنًا وهي تُودِّع مكرم إلى دمياط، لأنه كان مقصدًا للناس، ومُتعصبًا في نصرة الحق.

كيف كانت «اللجان» قبل أن تصبح «إلكترونية»؟

بعد ثلاثة أيام من الإقامة في عش الزوجية، الذي يبتعد عن شقة حماتي مسافة ثلاث عمارات، ضبطت زوجتي تقف في البلكونة متأثرة وهي تغني:

مهما خدتني المدن

وخدتني ناس المدن

دايمًا صورتك في قلبي دليلي في المدن

رأت زوجتي في مسافة العمارات الثلاث منفى، وتعاملت معه بأغنية رقيقة حزينة لعماد عبد الحليم. بالضبط مثل إمبراطورة إيران السابقة «فرح ديبا» التي بعد أن استقرت في المنفى مع الشاه زوجها، كانت تصاب بنوبات حنين، لكنها لم تكن تجيد الغناء، فكانت تحضر التلفون وتتصل بأرقام عشوائية في طهران، لبيوت

لا تعرف أصحابها، تخبرهم أنها مغتربة وتود الحديث معهم، فتسألهم عن أحوالهم وطبخوا إيه النهارده وأخبار أطفالهم حتى تُشفى من أثر نصل الوحشة.

خرجت الإمبراطورة من إيران إلى منفاها في صمت، بعكس «قطر الندى» التي أراد والدها «خمارويه» والي مصر، أن يتقرب إلى الخليفة العباسي بعرض ابنته للزواج من ابن الخليفة، لكن الخليفة اختارها لنفسه. وكان «خمارويه» رجلًا «لارج»، فلم يمانع، وجهَّزها بجهاز أفلس مصر، ثم أرسلها إلى بغداد بزفة عظيمة، بعد أن بنى لها على الطريق عدة قصور، واحد كل مسافة معينة مجهَّز بكل وسائل الراحة والرفاهية لترتاح فيه.

الحكاية تبدو سعيدة، لكن إذا دققت فستكتشف أنها بائسة. مثل جملة ناعمة تقول: «الدنيا ريشة في هوا طايرة بغير جناحين»، لو دققت فيها فستجدها مخيفة. أو جملة كانت قديمًا مبهجة تقول: «ماما زمانها جاية»، تحولت الآن إلى جرس تنبيه رنينه ذعر، ماما زمانها جاية وهناك شيء ما يجب علينا أن نخفيه. وهو تبدُّل يليق بتطور الكوكب، خُلق الإنسان لكي يعيش على كوكب الأرض بالعرض، لكنه أصبح يعيش عليه بالطول في عمارات تناطح السحاب، الكهف المطل على الغابة أصبح في الدور الـ٢١، ويطل

على حديقة رمزية. شقق في كل مكان، لكن مصر لها نصيب الأسد منها، حيث يوجد في مصر وحدها الآن ثلثا شقق العالم، وانتشرت العمائر والأبراج، وتعلَّم الناس مؤخرًا أن يدخروا أموالهم في الخرسانة، وهي ملاحظة لن تُعجب اللجان الإلكترونية.

«اللجان» الإلكترونية قديمة، بدأت «قرديحي» قبل «تي إي داتا» بسنوات (قردح بمعنى تذلل، وقرديحي أي ذليل). يحكي خالد محيي الدين: «قال ناصر دفعنا ٤٠٠٠ جنيه لخروج مظاهرات ٥٤ مطالبةً بإلغاء القرارات الديمقراطية» (عودة الأحزاب، والحريات، وكل هذا الكلام الفارغ). تعمل اللجان بتكنيك «نشر العدوى» في مجتمع مناعته صفر، ويساعدها الإعلام السائد في مهمتها. سمعت تحية كاريوكا تقول: «لا بد من مساحة عمل ثابتة للممثلين الكبار، لتعليم الأجيال الجديدة». والسؤال: ممن تتعلَّم الأجيال التي تدرس الإعلام حاليًّا والمهنة بلا كبار أو أكابر؟ مجرد رابطات عنق تتحدث بالثقة نفسها التي كانت تُقدِّم بها النساء وصفاتهن الطِّبية قديمًا (لعلاج العقم تُحمر السيدة كمية من البصل، ثم تذهب بها إلى قبر مفتوح، وتلقي فيه ما معها وهي تقول ثلاث مرات: «خدوا التقلية وهاتوا الذرية»)[1]؟

الاعتماد على شخص فاهم ومشاكس أفضل من جاهل «عايز يخدم». كان من المفترض أن يمر قطار الملك فؤاد المتجه إلى أسوان بمركز منفلوط، فقرر المسؤولون أنه لا بد أن يحتشد الناس على الرصيف للتحية، لأنه إذا أطل الملك من نافذة القطار وهو يمر ووجد المحطة خالية «هتطير فيها رقاب»، فحُشد الأعيان، وفكر قائد الشرطة في أهمية وجود نساء تزغرد، ونساء الصعيد لن يفعلن ذلك، وكانت الدعارة وقتها رسمية، فاستعان بالمومسات المسجَّلات وألبسهن ملابس حشمة، وعند مرور القطار حدث هياج، فاختلت الترتيبات، واختلط الرجال بالنساء، وكانت فوضى، فوقف قائد الشرطة يهتف وهو يشير يمينًا ويسارًا: «الأعيان من هنا.. والمومسات من هنا».

أول ضربة وجهها العدوان الثلاثي كانت لاستوديو «صوت العرب» في «أبو زعبل»، ليخرسوا صوتًا يُلهم أمة ويمتلئ بالثقافة والفن والنبرة، قال عنه ناصر في البرلمان: «سمعت عندهم كلام مش موافق عليه، لكن لا أستطيع أن أحدد لهم ما يقولونه، لأن قيمة صوت العرب في هذا الصوت». انطلقت الإذاعة برئاسة الشاعر صالح جودت، فبدأت كبيرة. وإذا كانت الدولة تُجري حاليًّا اختبارات المخدرات للموظفين، فإن الدولة أيام محمد علي كانت

تُجري اختبارات مفاجئة في الإملاء وقواعد اللغة، لأن الموظف الضعيف في الكتابة خطر على الدولة، وهو اختبار إذا جرى الآن فسيثير الفزع.

ترتاح الأنظمة للإعلام القادر على أن يأخذ الناس في «دوكة» (الدُّوكة في اللغة هي المرض. يعني الإعلام الذي يُمرض الناس). وقال الشاعر صالح جودت: «إن الحكومات البوليسية تكره كُتَّاب الدرجة الأولى، لأنها تعتبر كلًّا منهم حكومة داخل الحكومة، ولهذا فهي تعتمد دائمًا على كُتَّاب الدرجة الثالثة». وكان حسني مبارك قد طالب الكُتَّاب والمثقفين في اجتماع معهم بأن يقتدوا بالصحفي سمير رجب رئيس تحرير «الجمهورية» وقتها، وهو ما اعتبره يوسف إدريس إهانة كبيرة له شخصيًّا وللشغلانة، فانسحب من الاجتماع غاضبًا، فطارده بعدها مبارك بالتلقيح وشائعات أنه كان يقبض من القذافي. وأيام مبارك أيضًا كان بليغ حمدي[٢] قد أرسل من غربته في باريس إلى عفاف راضي أغنية كتبها ولحنها، اسمها «برغم البعد عنك»، فغنتها وصوَّرتها، لكنها لم تكن تذاع كثيرًا، حتى مرض مبارك وسافر إلى ألمانيا للعلاج، فرأى رئيس الإذاعة والتلفزيون أن إذاعة هذه الأغنية المجمدة ستكون مناسِبة للحدث، ومعبرة عن مبارك في غربته، وعرض

الأمر على الوزير الذي رحب بالفكرة، لكنه طلب منه أن «نسأل الأستاذ جمال الأول». وقد وافق الأستاذ جمال على إذاعتها بعد أن أعجبته الفكرة. ومؤخرًا سمعت مذيعًا ذا ميول حكومية، يهاجم ويسخر من أحد مذيعي القنوات التركية قائلًا: «ده بيكتب أغاني لسيمون»، وهناك تحفظات كثيرة على مذيع تركيا كان يمكنه وهو يناقشها أن يكون مفيدًا، فيصحح مفاهيم ويقوِّم وجدانًا، لكنه اختار من هذه التحفظات ما يزرع في العقل الباطن تفاهة الفن، وعار كتابة الشعر والأغنيات، وقلة قيمة ما مرتبطة بفنانة محبوبة.

أسطورة أم كلثوم تقوم على طبق مهلبية. طفلة حلوة الصوت يحاول والدها أن يقنعها بالغناء، لكنها ترفض خجلًا، فيغريها بطبق مهلبية، فتوافق، وتصعد إلى المسرح ولا تنزل منه أبدًا. والمهلبية قد تصنع فنانًا يحرك المشاعر، لكنها لا تصلح أبدًا لصنع شخص يوجِّه الناس.

الإعلام عمومًا له «طلعات» غريبة من زمان. في بداية السبعينيات تحمسوا لمحاربة السوالف العريضة التي انتشرت، وزرعوا في عقول الآباء والأمهات أن تلك السوالف التي يتزين بها أبناؤهم وارد إسرائيل، هي التي صدرتها إلينا لتلهينا عن المعركة، لكن أحدًا لم يهتم حتى بأن هذا الجيل خاض حربه بالسوالف ماسحًا بكرامة

إسرائيل الأرض. وفي بداية القرن الماضي تحمست الصحف (إعلام الفترة) لمنتج طبيعي يعيد الشيخ إلى صباه، اخترعه الخواجة «دلمار» في أجزاخانته بالموسكي، مستحضر قالوا عنه: «يقوي المجموع العصبي، ويحرك الشهوة دون ضرر، مكوَّن من نباتات مصرية طبيعية مطبوخة في فرنسا، وهي ليست تراكيب كيماوية تهيج الأعصاب ثم يعقبها ضعف البدن». جملة طويلة اختُصرت بعد قرن في كلمة واحدة «فياجرا». الحبة السحرية التي دعمت أحلام الرجل التوسعية، وهناك من يدافع عنها بصفتها «كتَّر خيرها فاتحة بيوت». هناك رجال يعتقدون أنهم يستطيعون الغلوشة على أي سلوك حيواني خلال المعاملات اليومية بحيوانية أكبر في نهاية اليوم. الفرق بين الرجل والمرأة في الفراش، يُذكِّرني بالفرق الذي ذكره المستكشفون قديمًا بين الشرق والغرب، فسكان الشرق يرون الغابة، بينما يرى الغرب عدد أشجارها، وهي تنظيرة قد لا تعجبك فلا تتوقف عندها كثيرًا، وهي ليست دفاعًا عن المرأة في شيء، فهي أقوى من أن تحتاج إلى من يدافع، لكنها قد تحتاج إلى من يستمع. وأنا وقفت أستمع إلى زوجتي وهي تغني، تعاطفت مع تغريبة عروس جديدة فعزمتها على السينما، وبعدها أكلة سوشي، وفي

نهاية اليوم أعدتها إلى والدتها التي استقبلتها بأحضان مؤثرة. وتركتهما وعُدت إلى المنزل وحيدًا، ثم ضبطتُ نفسي في وقت متأخر بعد أن غادرتُ الفراش قلقًا، أقف في البلكونة وأغني:

زي ما رُحنا.. زي ما جينا
بس الاسم.. إننا حبينا[٣]

هامش ١

التقلية وصفة العقم. أما وصفة الإجهاض، أيًّا كان السبب، فهي «شرب الكوكاكولا المغلية»، وهي وصفة غريبة، أغرب من الطريقة التي كان يُقاوم بها الفلاحون دودة القطن في بدايات القرن الماضي (رش النباتات التي وصلت إليها الدودة بمستحضر قوامه غذاؤهم الأساسي «المِش»، مع إضافة القليل من «الجاز»)، بخلاف وصفة مقاومة البلهارسيا في العشرينيات، والتي تقوم على تعاطي الحشيش لأنه يُبطل همدان المرض، ويجعل الرجل قادرًا على أداء واجباته الزوجية. أما المرأة التي لم يكن يعيش لها مواليد، فكانت وصفتها سهلة: تأخذ المولود الجديد و«تشحت بيه» أربعين يومًا.

أما المعجزة الحقيقية، فكانت وصفة «السونار البلدي»:

الأجيال القديمة من فلاحات الدلتا كن يمتلكن جهاز سونار شعبيًّا يساعدهن على تحديد نوع الجنين. الوصفة: حبة قمح، وحبة شعير، يغرسان في حفنة رمل، ثم تقوم المرأة الحامل بري هاتين الحبتين يوميًّا ببولها، فإذا نبتت الاثنتان (حبة القمح وحبة الشعير) فإن المرأة ستلد ولدًا، وإذا نبتت حبة الشعير فقط فإنها ستلد أنثى، وإذا نبتت حبة القمح فقط فإنها ستلد ولدًا، أما إذا لم تنبت هذه ولا تلك فإن حمل المرأة لن يكتمل ولن تلد.

وكانت هناك وصفة أخرى شائعة لتحديد جنس المولود، وصفة يُستخدم فيها البطيخ، حيث يُهرس ويُخلط بكمية من لبن امرأة ولدت ذكرًا، ويُقدَّم إلى المرأة الحامل، فإذا تقيأته فستلد ولدًا، وإلا فإنها في الغالب لن تلد.

هامش ٢

«مَن هو مثلك الأعلى ككاتب؟».

سؤال الندوات المتكرر. يمتلك بليغ حمدي كموسيقي كل ما يجعله مثلي الأعلى ككاتب.

يتعرف الواحد على موسيقى بليغ وهو مغمض العينين. يقولون «الأسلوب هو صورة العقل في المرآة». يتمنى الواحد أن يمتلك عقلًا يرتب الأفكار المضطربة، كما كان بليغ يرتب الموسيقى المشتعلة بداخله.

يدخل بليغ في الموضوع مباشرة، يتجاوز الزخارف،

رهانه طوال الوقت على «البني آدم»، لا يراهن على إبهاره بالاستعراض، ولكن على أن يلمس قلبه مباشرة. هو شخص «مِذاكر جمهوره»، درس المصريين وما استقر في وجدانهم، وهي معجزة مع وجدان معقد ومزدحم يصعب النفاذ من كمائنه لتسجيل نقاط جديدة، شخص يمكنك أن تقرأ من إنتاجه أنه كان يعمل وهو مشغول بالناس وليس بنفسه.

يمتلك بليغ المقدرة على تحديد ما يريد أن تقوله بالضبط عند تقديم عمل ما، لا ثرثرة ولا كليشيهات، حماس الاستهلال ينقلب سحرًا مع القفلة. هناك ألحان كثيرة عظيمة في تاريخ مصر، لكن ما يميز بليغ أن موسيقاه تجاوزت منطقة «السمع» إلى منطقة الموسيقى التي تفتح معك «مواضيع».

بليغ حمدي يشبه اسمه، البلاغة هي ما يفهمه العامة ويرضى عنه الخاصة. وهو حلم أرباب الورقة والقلم أينما ظهروا.

الإنتاج الغزير والمتنوع المسقي من بحيرة طموح عجيبة. «كان في الستين وهو يتحدث في حوار عن خططه لمسرح غنائي». رغبة لا تخبو في التجريب، «أصوات وألحان وآلات». يقفز برشاقة مع قفزات الأجيال المتعاقبة. الملحن الشاب المنطلق بقوة في بداية الخمسينيات، تلهث خلفه حناجر الثمانينيات تحلم بفرصة معه، ثم تكتمل الأسطورة عندما يستعذب أبناء الألفية الجديدة إعادة تقديم ألحانه، فتبدو في حلتها الجديدة كأنها خرجت من المطبخ صباح اليوم.

بليغ حمدي مثل أي كاتب كبير، يعرف قيمة كل تفصيلة،

ويضع كل شيء في مكانه بالضبط. في معجزة «وأنا على الربابة باغني» استخدم في الخلفية إيقاع «النقرزان»، إيقاع الفرح الوقور. وهو يصوغ فرحة العبور عمل بليغ حسابًا للعائلات القلقة على أبنائها على الجبهة، فصنع لها مساحة للفرحة التي تقول إن ثمنها غالٍ.

«أشكي لمين» التي غناها منير، معجزة. بليغ صاحب الكلمات واللحن صنع بالمرح والبهجة فستانًا لجسد حزين يقول: «أشكي لمين وأحكي لمين دنيا بتلعب بينا؟»، التناقض الذي ينير التجربة، واقعية «بُكرة الزمان يسرق شبابنا»، مع استبسال «بالحب ننسى كل اللي فاتنا»، وسحر التسليم «إيه راح ناخد منها إيه». أغنية تقول كيف يمكن للواحد أن يصادق أحزانه ويقف يتأمل معها فتارين السكينة! هذه خلطة لا تنتمي إلى الموسيقى بقدر انتمائها إلى الواقعية السحرية.

معجزة بليغ أنه عاش للفن ولم يعش به، وأنه يُلحن كطبيب نفسي لن يبدأ لحنٌ له وأنت قلق على حافة المقعد إلا وأرغمك على أن تزحف قليلًا إلى الخلف، وأنه يرى في الشكوى مناسبة لـ«السلطنة»، وأنه يجعلك تنسى المُنتج نفسه وتنشغل بتأمل الصنعة، وأنه يجعلك تسأل نفسك كثيرًا: «عملها إزاي؟».

يقول «موليير»: «كل الفنون تسعى لأن تكون موسيقى». ومعجزة بليغ أنه اختزل في موسيقاه فنونًا كثيرة في مقدمتها من وجهة نظري «فن الكتابة».

في فقرة حليم في إذاعة الأغاني قالت المذيعة: «سنستمع

إلى أغنية ألحان الموسيقار عبد الوهاب، والثانية ألحان بليغ حمدي». شعرت بغصة ألا تعتبره المذيعة موسيقارًا مثل عبد الوهاب، ثم أدركت أنها فعلت ذلك بتلقائية الكلام عن الأغراب وأفراد العائلة. قال لي أحد كبار الملحنين: «عبد الوهاب عمل أغاني للناس، بليغ خلَّا الناس تغني»، وهذه معجزة أخرى.

هامش ٣

أغنية «حاول تفهم» لمحمد محيي، كلمات محمود العدوي، ألحان مصطفى عوض.

هل كان نجيب محفوظ «تلميذ شاطر»؟

لا بد من ذكر الاسم ثلاثيًّا، هذا شرط نص القرار الجمهوري الذي يتعلَّق بأي شخص في مصر. استُثني هذا الشرط مرَّة واحدة، عندما أصدر عبد الناصر قرارًا بتعيين نجيب محفوظ[1] رئيس مجلس إدارة المؤسسة المصرية العامة للسينما. لم تتعامل معه رئاسة الجمهورية كمواطن ذي بطاقة شخصية واسم ثلاثي، لكنه كان بالنسبة إليها «ماركة»، لم يكن حتى اسمًا ثنائيًّا، كان كلمة واحدة «نجيب محفوظ».

«المشي في شوارع القاهرة غير مريح»، قالها محفوظ ولم يتوقف عن المشي أو عن القاهرة. وكنت أعتقد أن إدمانه للمشي هو الذي جعله لا يتعثر أبدًا طول الطريق، إلى أن لمحت في كتاب «العادات الذرية» مقولة: «التهديد الأكبر للنجاح ليس الفشل، ولكن الملل»، وظهرت صورة محفوظ أمامي في الحال.

لم يمل أو يتوقف، وحوَّل الكتابة من مهنة إلى عادة. احترف نظام العمل، لكنه ترك الموهبة تنعم بروح الهواية. وكان تقريبًا الشخصية العامة الوحيدة التي نعرف لها برنامجًا يوميًّا منتظمًا ومضبوطًا بالثانية.

معلش ثانية واحدة...

شخصية أخرى عرفنا برنامجها من الأستاذ هيكل: السادات.

التاسعة صباحًا: الاستيقاظ وتناول ملعقة عسل بغذاء ملكات النحل، يعقبها فنجان شاي، ثم نظرة على الصحف.

التاسعة والنصف: فقرة المدلك، ويعقب التدليك الطبيعي حمَّام ساخن، يعقبه وصول صينية الإفطار المكوَّن من الجبن والخبز الخالي من السعرات الحرارية المستورد خصيصًا من سويسرا.

قبل الظهر: كأس من الفودكا ينشطه قبل إجراء المقابلات.

من الثانية عشرة حتى الرابعة: مقابلات.

الرابعة والنصف: وجبة الغداء (شرائح صدور الدجاج أو اللحم البارد، مع طبق خضراوات طازجة بدون بهارات)، ثم الذهاب إلى النوم.

السابعة والنصف: الاستيقاظ وتناول وجبة خفيفة.

الثامنة: بدء الاتصالات مع الوزراء وبعض المسؤولين الأجانب، بالذات الأمريكان، تعقبها مكالمات مع بعض رؤساء تحرير الصحف المقربين منه، يناقشهم فيما لديهم من أخبار، ويقدم إليهم توجيهاته.

التاسعة والنصف: يطلب كشف أسماء الأفلام الجاهزة للعرض في صالة السينما المنزلية، ويؤشر على فيلم أو اثنين، ويبدأ العرض في تجمع عائلي في حدود العاشرة.

الثانية عشرة مساء: التوجه إلى النوم.

في عام ١٩٨٠، أُجري حوار صحفي يجمع محفوظ وتوفيق الحكيم مع الأولى على الثانوية العامة (كان ترتيب محفوظ في البكالوريا الـ٢٣ على القطر، في الفترة التي كانت الرحلة المدرسية الأشهر وقتها هي رحلة الطلاب إلى المتحف الصحي الذي أنشأه الملك فؤاد، ليتأمل الطلاب هياكل مدمني الكوكايين وصورهم البشعة لتفادي هذه المأساة مستقبلًا). المهم، سأل محفوظ الطالبة عن طموحها المستقبلي، فقالت إنها ستدرس الآداب لأنها تود أن تحترف الكتابة، فنصحها محفوظ بمراجعة الفكرة وأن تطورها لفن مصور قائلًا: «المستقبل

للصورة أكثر من الحروف، والتلفزيون جاء مناسبًا للجيل الحالي، لأنهم من حيث التعليم استيعابهم أقل، ومن حيث الثقافة معدومو الثقافة تقريبًا». وقد كان محقًّا، لأن الصورة تتصدر حاليًّا، ولولا كبرياء المطابع لأصبحت الكتب فلكلورًا.

يقول «تشيكوف» ناصحًا الكُتَّاب: «لا تقل لي إن القمر مضيء، ولكن أرني أثره فوق زجاج مهشَّم». وكل ما مر بمصر من زعماء وشخصيات وأحداث ستجده بين سطور أعمال محفوظ، لكنه في الوقت نفسه حمى ما كتبه بأن ابتعد عن السياسة الصريحة، بمبدأ «ابعد عن الشر وغنيله»، وهي جملة نرددها منقوصة، فهي «ابعد عن الشر وغنيله ولا «تقنيله»»، أي: اصنع قناةً بينك وبينه، وهذا شرط الغناء.

طلبوا منه تصريحًا صحفيًّا بخصوص اتصال مبارك به بعد «نوبل»، فقال: «اتصال مبارك نوبل أخرى». قبلها بسنوات حافظ على مسافة بينه وبين ثورة يوليو، ربما لأنه لمح كركبة تسيطر على البدايات: في ستة أشهر رفض عدلي باشا لملوم[٢] تحديد الملكية الزراعية، فحاصرت الدبابات منزله، ثم حُكم عليه بمؤبد سريعًا. إغلاق جريدة «المقطم» ومجلة «الكتاب» ومجلة «الملايين» و«الثقافة»

و«الرسالة» وخمس مجلات أخرى. اعتقالات بالجملة. إلغاء الدستور. حل الأحزاب ومصادرة ودائعها في البنوك. حل نقابة الصحفيين، ثم نقابة المحامين. طرد أكثر من أربعمائة وخمسين أستاذًا من التدريس في الجامعات. مصطفى أمين يكتب مقالًا بعنوان «سر الضباط التسعة» يكشف عن قيادة ناصر للمجموعة، فيتم منع نشر بقية المقالات (على الرغم من أن ناصر كان مصدر المعلومات، لكنه شعر بفتنة قادمة داخل الجيش فقرر أن يُضحِّي بأمين صوريًّا). وشهد محفوظ وقتها عودة نظرية «ربط اسم مصر باسم القائد». يقول أحد المؤرخين عن فترة أقدم من تلك: «لقد بلغ التوحُّد بين مصر وحاكمها درجة تجعل الكلام عن حكومة مصر أو تجاربها أو شُرطتها، إلخ، يعني الكلام عن شخص محمد علي».

قدَّر النظام سلمية محفوظ، فتجنَّب جرجرته للنيابة بعد ثورة ضد «أولاد حارتنا»، لكنه سرَّح في الشوارع مخبرين يمثلون أنهم معجبون بمحفوظ، يستوقفونه ويناقشونه كقُراء في الرواية وماذا كان يقصد[٣].

لم ينجُ من ملاحقة الأمن للمثقفين في عهد عبد الناصر- بخلاف نجيب محفوظ ـ سوى صلاح جاهين. كان جاهين مفتونًا بالشاعر الكبير فؤاد حداد، المحبوس منذ أربع

سنوات بسبب انضمامه إلى خلية سرية. وكان جاهين يُردِّد أشعار حداد في كل مكان، ويُطارد كل مَن يعرفهم من أصحاب القرار لإنهاء سجن حداد. وكان ثمة حاقدون على المكانة التي يحظى بها جاهين، ويبحثون عن أي مدخل للوشاية، فأرفقوا محاولات جاهين للإفراج عن حداد مع رباعية قالوا إنه قصد بها عبد الناصر، وهي الرباعية التي تبدأ بـ«يا طير يا عالي في السما طُز فيك».

جهَّزوا قرار الاعتقال وقدَّموه إلى عبد الناصر للتوقيع عليه، فغضب ناصر بشدة، وألقى بالقرار في وجه من قدَّمه قائلًا: «إن كل ما يُقدِّمه جاهين رسمًا وشعرًا يُعبِّر عن وطنية خالصة وفنان مهموم بوطنه».

كانت أزمة «أولاد حارتنا» لها علاقة بالدين، وما أفصح عنه محفوظ فيما بعد أنه شعر بالقلق لأن المحتوى كان سياسيًّا بالدرجة الأولى، لكنه حمد الله أنهم جنحوا به إلى قراءة أخرى ظلت تطارده ثلاثين عامًا حتى استقر خنجر في رقبته. «أولاد حارتنا» باب رزق بدأ بألف جنيه مكافأة جريدة «الأهرام» لنشرها مسلسلة، وانتهى بمليون جنيه قيمة جائزة «نوبل» التي استقبل الصحفيين بعد خبر حصوله عليها في بيته بـ«البيجامة».

يعرف الجميع الرواية، لكن قليلين قرأوها، والصورة[٤]

لا تزال متصدرة، وجرِّب أن تسأل العامة عن محفوظ، وستجدهم يحدثونك عنه وفي مخيلتهم «يحيى شاهين».

هامش ١

حُرم نجيب محفوظ بسبب اسمه من بعثة الجامعة لدراسة الفلسفة في باريس، ظنًّا من إدارة الجامعة أنه قبطي. كان القصر الملكي يزعجه وقتها دعم الأقباط لحزب «الوفد»، فحُرمنا من فيلسوف، وهي ليست خسارة كبيرة في بلد يعتبر الفلسفة شتيمة (إنت هتتفلسف؟)، وكسبنا معجزة تتجاوز الفن والأدب إلى ما هو أبعد بكثير.

هامش ٢

كان عدلي لملوم أحد أشهر الإقطاعيين في مصر. يمتلك أربعة عشر ألف فدان في محافظة المنيا، وعددًا كبيرًا من الأتباع والخدم. ورث كل ما سبق وهو في سن السادسة والعشرين. وبعد صدور قانون الإصلاح الزراعي في مصر، والذي يُحدِّد ملكية الأفراد للأراضي الزراعية بحيث لا تتعدى ٢٠٠ فدان، قاد عدلي لملوم تمردًا ضد ذلك القانون، فامتطى صهوة جواده، ومعه الحرس والأتباع والخدم، وخطب في الناس مهددًا مَن

يفكر في أخذ شبر من أرضه. وقام ورجاله بمهاجمة قسم الشرطة وإطلاق النيران على الضباط، وبعد القبض عليه وأثناء محاكمته كان يسب قادة الثورة بأقذع الشتائم والألفاظ، ويتهمهم بالسرقة وتدمير الزراعة في مصر.

حُكم عليه بالإعدام، ثم خُفِّف الحكم إلى المؤبد، إلى أن أُفرج عنه بعدها بفترة نظرًا لسوء حالته الصحية.

هامش ٣

تكرَّر التحقيق غير المباشر مع نجيب محفوظ مرَّة أخرى، حسب رواية نجيب محفوظ للأستاذ رجاء النقاش، فقد طلب منه فريد شوقي كتابة سيناريو لفيلم يدور في أجواء المخابرات، وكان لا بد من زيارة مكتبهم لمناقشة الفكرة، وطلب مساهمتهم في الإنتاج. وفي مكتب ضابط المخابرات المسؤول، كان هناك شخص يجلس بعيدًا ولا يشارك في الحديث، حتى انتهى الكلام عن الفيلم، وفُتحت سيرة الروايات، فقال له الشخص الغامض إنه قرأ «بين القصرين» و«أولاد حارتنا»، ثم بدأ يسأله عما يقصده في هذه الرواية، والمشكلات التي أُثيرت حولها، وحقيقة أنها تحتوي على تجاوزات دينية. ثم انتهى الحوار بانصرافه، ووعد الضابط بدراسة الفكرة والمساهمة في التمويل.

ويحكي محفوظ أنه بعد هذه الواقعة بشهور شاهد في الصفحة الأولى لجريدة «الأهرام» صور جولات عبد الناصر

في إحدى الدول الأفريقية، وعندما دقَّق وجد بالقرب منه الرجل الغامض الذي كان يناقشه في مكتب المخابرات، وكانت دهشة محفوظ كبيرة عندما عرف أنه رئيس المخابرات صلاح نصر، ففهم أن الأمر كله كان مدبرًا.

هامش ٤

علاقة نجيب محفوظ بالسينما، بدأت من الصفر حرفيًّا. في بداية الخمسينيات قرأ المخرج صلاح أبو سيف «رادوبيس» و«كفاح طيبة»، أحب الكاتب فطلب مقابلته، ثم عرض عليه: «أنا عايزك تكتبلي سيناريو»، فكان رد محفوظ: «يعني إيه سيناريو؟».

بعد هذه الواقعة بعشرين عامًا تقريبًا، أصبح نجيب محفوظ رئيسًا للمؤسسة المصرية العامة للسينما، يجلس على قمة المؤسسة المسؤولة عن إنتاج الأفلام في مصر، وقد وضع بينه وبين نفسه شرطًا لقبول المنصب، وهو أن يتوقف عن كتابة الأفلام طوال فترة توليه المنصب منعًا للحرج.

بعد خروجه من المنصب بما يقرب من عشر سنوات، كانت شركات الإنتاج تفتش بـ«ملقاط» عن أي رواية لنجيب محفوظ لا تزال في درج مكتبه ولم يقم ببيعها، حتى إنهم بدأوا التفتيش في ملفات محفوظ المكتوب عليها «لاغي»، والتي توجد بها روايات كتبها محفوظ ورأى أنها لا تستحق النشر. ومن شدة

الإقبال على روايات محفوظ، كان واردًا أن يقع في خطأ بيع القصة نفسها مرَّتين. كانت هناك شركات تشتري القصة وتركنها لظروف إنتاجية، وينساها محفوظ حتى تطلب منه شركة أخرى شراءها، وتبدأ المشاكل عند الإعلان عن بدء التصوير.

ثم بدأت ظاهرة التفتيش لا عن روايات محفوظ، ولكن عن قصصه القصيرة. كان السيناريست مصطفى محرم قد قرأ قصة منشورة في جريدة «الأهرام» لمحفوظ، اسمها «أهل الهوى»، ورأى فيها فيلمًا ناجحًا، فعرض الأمر على أحد المنتجين فاشتراها، وقُدِّمت سينمائيًّا تحت عنوان «وكالة البلح» بطولة نادية الجندي.

كان أجر محفوظ عن قصة الفيلم ٤٥٠٠ جنيه، ولم يكن الأعلى أجرًا. كان إحسان عبد القدوس يتقاضى ٧٥٠٠ جنيه ثمنًا للقصة. أما حُسن شاه فكانت تتقاضى ١٠٠٠٠ جنيه. وفي ذيل القائمة جاء يوسف إدريس بأجر ٣٠٠٠ جنيه.

من علَّم عبد الناصر شُرب السجائر؟

في ليالي الشتاء الباردة أمتلك حلًّا، لا يمنحني الدفء، ولكنه يجعل البرد ممتعًا.

أكتب على يوتيوب كلمة «مصر» وإلى جوارها السنة (مثلًا «مصر ١٩٦٠»)، ثم أتجول بين نتائج البحث، أتأمل نسخة قديمة من بلد أحبه: أفلامًا، أغنيات، شوارع، أزياء، خطبًا سياسية، مقاطع من لقاءات تلفزيونية، حلقات من مسلسل إذاعي نادر، عددًا من جريدة مصر السينمائية التي كانت تُعرض في القاعات قبل بداية الفيلم، دقائق من كرة القدم الأصلية حيث المتعة تسبق الخطط والتكتيك.

وصفة أرى أثرها قريبًا من مشوار صيانة السيارة، كل عشرة آلاف كيلو تذهب إلى التوكيل لمساعدة سيارتك على استعادة لياقتها. هذا البلد الذي أتأمله في أربعينياته حتى ثمانينياته يُجدِّد المحبة، وينفض التراب عن أثر كلمة

«مصر» على وجدان الواحد، ولكن يبدو أن مصر استكترت على الواحد هذه الصيانة الدورية.

صممت الدولة «أبليكيشن» يلزمني بدفع أموال لمشاهدة التراث المملوك لعموم المصريين، والذي يُنتَج ويُصوَّر بأموالهم. كل ما يُشكِّل ثقافة ووجدان شعب قررت الدولة أن تسحبه مني، وتعود فتبيعه لي، وأنا واحد من أصحابه الأصليين. هي تقول إنها فعلت ذلك لحماية التراث، والحقيقة أن «الأبليكيشن» أقرب لـ«كارتة»، والكارتة هي التفصيلة الأكثر انتشارًا مؤخرًا، وهي ليست فكرة حديثة، الكارتة الأقدم صدر بها قرار عقب افتتاح كوبري قصر النيل عام ١٨٧٢، وكان رسم عبور النيل للجمل المُحمَّل قرشين والفارغ قرشًا، الرجال والنساء فارغين وشايلين، كل فرد ١٠٠ بارة.

وعلى الرغم من هذه الرسوم المرتفعة، فإن الزحام لم يتوقف. وأفضل تفسير لزحام القاهرة قاله جمال حمدان وفسَّره بـ«الإفراط في العاصمية»، ونبه إلى خطورته، كما نبه إلى فكرة أن الاحتلال على تنوعه فشل في أن يزرع الفتنة بين المصريين، ولكن فعلها الجهل بنجاح. وعن علاقتنا بالنيل قال: «المصري إلى حدٍّ ما مخلوق نهري». وكان أول تحديد جغرافي سياسي لحدود مصر، جملة واردة

في إحدى البرديات تقول: «الأرض المشمولة بفيض النهر هي مصر».

ارتباط المصريين بالنيل يكاد يكون في قوة ارتباط عبد الناصر بعبد الحكيم عامر. كان ناصر يتحدث عن عامر بحب شديد ـ قبل النكسة طبعًا ـ قائلًا: «إحنا صعايدة وضباط، وأخدنا شقة مع بعض في القاهرة، وهو الوحيد اللي أدخل بيته في عدم وجوده والعكس صحيح. وإذا أردت أن أحل أي معضلة أتكلم مع عامر حتى تتبلور أفكاري، وعامر هو الوحيد الذي يمكن أن يتقبل عني الرصاص، وهو اللي علِّمني شُرب السجاير».

قال الشاعر في شرب الدخان:

لقــد عَنَّفونَــا بالدُّخــان وشُــربِه
فَقلتُ دَعوا التَّعنيفَ فالأَمرُ أَحوَجَا
ألا إن الغــم فــي غَــار صَدرِنــا
عَصانــا فَدخَّنَّــا عَلَيــه ليَخرُجــا

كانت السيجارة في يد عبد الناصر لها جاذبية أكبر من تلك التي تمتلكها وهي في يد نجوم السينما وقتها، كل ما يتعلَّق بعبد الناصر محل خلاف ما عدا جاذبيته[1].

وتقول المادة الأرشيفية المتاحة إن ناصر كان يُدخِّن ما يقرب من علبتين يوميًّا، من مختلف الأنواع: إل إم،

وكينت، وكليوباترا. وكان يدعم صناعة الأخيرة. وفي عام ١٩٥٤ ظهر في خطاب تلفزيوني، قائلًا: «سعر علبة السجائر سيرتفع لدعم المجاهدين في الجزائر ضد الاحتلال الفرنسي». كانت شراهته للتدخين مُهلكة، وظل الأطباء يضغطون عليه للإقلاع دون فائدة، إلى أن أخبره الأطباء السوفييت في رحلة علاجية إلى روسيا أن الأمر حرج ويقترب من الغرغرينا، نقل له المترجم ما يقولونه، وكان ناصر يدخن سيجارة، فأطال النظر إليها، وبعد نفس عميق قال: «لن أجادل، فلم يعد الأمر شخصيًّا، لكنه يتعلَّق ببلد». وكانت سيجارته الأخيرة، وعاش بعدها لمدة عام، وعندما تُوفِّي كان مقرئ عبد الناصر المفضَّل الشيخ مصطفى إسماعيل[٢] هو مقرئ الجنازة.

حكيت هذه التفصيلة أمام صديق، فقال: «هذا يُفسِّر سبب موت عبد الحكيم عامر، قتله ناصر بعد أن أفسد عامر كل شيء، بدءًا من الوحدة مع سوريا، ومرورًا بحرب اليمن، ثم النكسة، وقبلها كان قد بوظ أخلاق وصحة الزعيم».

انتحر عبد الحكيم عامر أم قتلوه؟ سؤال تبدو كل الإجابات عنه صحيحة. فإذا كان قد قُتل، فقد أوحى لهم هو شخصيًّا بحكاية الانتحار ـ كتفسير لموته ـ بعد أن ظل

يتحدث عنه أكثر من مرَّة في الأيام السابقة على رحيله. وإن كان قد انتحر، فالفكرة كانت تراوده ولم يُخفها حتى نفَّذها.

ظُهر يوم ٥ يونيو، دخل ناصر على عامر في مكتبه، وطلب منه أن يجتمعا، فظل عامر يراوغ، ويتظاهر بالانشغال بالمكالمات التلفونية، ويتجاهل وجود ناصر، حتى رحل الأخير في ثورة عارمة اكتملت في اليوم التالي بعلمه بتعليمات عامر للقوات بالانسحاب بدون خطة، وهي كارثة جعلت المؤرخين يؤكدون على أن «النكسة وخسائرها كانت في الانسحاب ولم تكن في المعركة».

تنحَّى ناصر، وحاول عامر أن يذيع بيان تنحيه كقائد للجيش لكنه مُنع، فثار، وتجمَّع حوله أنصاره من ضباط الجيش وأقاربه، في بيت مدجج بالسلاح، وهدَّد بالانتحار للمرَّة الأولى.

وصل خبر أن عامر يرتب لـ«انقلاب»، فدعاه ناصر مع بعض القيادات إلى منزله، وقال له: «تم تحديد إقامتك». فرد عامر: «قطع لسانك». فانصرف ناصر إلى غرفة نومه في الدور العلوي، ودخل عامر الحمَّام وخرج إلى المجتمعين حاملًا كأسًا فارغة، طالبًا من المجتمعين إخبار ناصر أنه انتحر. فأبلغوا ناصر، فقال: «خالت عليكم اللعبة؟ عامر

أجبن من إنه ينتحر، لو كان عايز يعملها كان عملها لما ودَّانا في داهية».

كان هذا في نهاية يوليو، وأُعيد عامر سليمًا إلى بيته بعد تجريده من السلاح والأنصار. وفي ١٤ سبتمبر أُعلن عن وفاته منتحرًا. أغلب الظن أن عامر استفزه سوء عدالة توزيع أنصبة المسؤولية عن الهزيمة، ففي الوقت الذي أصبح فيه منبوذًا من الجميع زادت شعبية ناصر، وخرج الناس إلى الشوارع مُتعلِّقين بـ«رِجل بنطلونه» يستحلفونه ألَّا يتنحى.

تعامل عامر مع الصدمة بروح طفولية غاضبة بائسة. قارن مثلًا هذا الطفل بطفل الموسيقار عمار الشريعي عندما كان في الخامسة من عمره. كان عمار يجلس مع صديق في مكتبه، وكان مراد طفل الشريعي يقف خلف الباب، كل قليل يطرقه، وكلما سأل عمار مَن الطارق، كان ابنه يرد منتحلًا أشخاصًا آخرين: «السائق، الطباخ، الخفير». اندهش الصديق الجالس مع عمار، وطلب تفسيرًا، فقال عمار: «قالوله إن أبوه كفيف، ومُصر يتعامل مع الصدمة، ويتأكد منها بنفسه». كان الطفل يتأمل الصدمة ويختبر أبعادها بتروٍ بدون غضب أو ضوضاء.

في علاقته بعبد الحكيم عامر، لم يتعلم عبد الناصر من أزمة «أهل الثقة» و«أهل المفهومية» وهو المؤسس

لفكرة التعليم المجاني. وإن كان التاريخ يقول إن طه حسين هو الذي بدأ الفكرة عندما كان وزيرًا للمعارف، وهي الفترة التي يندم فيها العميد على قراره بإلغاء تدريس اللغة الإنجليزية في التعليم الابتدائي ليُقوي لغته العربية، ويقول إن نتيجة قراره كانت أن الطلبة «لا بقت عارفة عربي ولا إنجليزي». وهي نتيجة سيئة لقرار كان يهدف إلى دعم مؤسسة التعليم، بخلاف نتيجة جيدة كان يهدف بها محمد علي إلى دعم مؤسسة الجيش. فعقب أوامر تجنيد المصريين للمرَّة الأولى، كان الفلاحون يهربون بمؤامرات، ويدفعون لمن يتجنَّد مكانهم، فأصدر قرارًا بأن يحمل كل شخص جواز مرور مختومًا مُسجَّلًا به اسمه واسم أبيه ومواصفاته الجسمانية وقريته، وكان هذا هو أول ظهور للبطاقة الشخصية.

تهرُّب الفلاحين كان سببه إيمانهم بأن التجنيد سكة بلا رجوع، مثل إيمانهم بأسطورة أن شعر الأصلع سيعود إذا لحست البقرة رأسه مرَّتين كل يوم، وهي أسطورة ثبت كذبها. واستمر الصلع الذي يتعرَّض صاحبه للتنمُّر طوال الوقت مع كثرة الإعلانات عن منتجات وعمليات لـ«علاج» الصلع. كلمة «علاج» تؤكد طوال الوقت على أن ما يمر به الأصلع هو «علة»؛ كلمة مؤذية مثل تعبير:

«أصحاب الاحتياجات الخاصة»، الذي يجب أن يصبح: «أصحاب القدرات الخاصة» لأنها الحقيقة؛ فهم أشخاص حُرموا من مهارةٍ ما، وعلى الرغم من هذا فهم قادرون على التعامل والتقدم في تجربة الحياة بدونها، وهو ما يُعبِّر عن قدرة خاصة لا احتياج خاص. والصلع ليس مرضًا يحتاج إلى علاج، هو أيضًا قدرة خاصة على أن تواجه نفسك في المرآة بدون رتوش. هناك مَن يُحسنون التعامل مع هذه التفصيلة، فيقولون للأصلع على سبيل الطبطبة إن «الطبيعة أنتجت رؤوسًا جميلة، ثم غطَّت البقية بالشعر»، ويُقال له بدون أمارة حقيقية أحيانًا إنه علامة الذكاء وتدفُّق الأفكار لأن «الأشجار لا تنمو على الطرق السريعة»، وهي الطرق الوحيدة حاليًّا بلا «كارتة».

هامش ١

يسأل الواحد نفسه: لماذا يفتش دائمًا عن خطب ناصر والسادات، ولم ينجذب يومًا لفكرة الاستماع إلى خطب مبارك، ولم يجد في الأمر أي جاذبية؟

لم تكن سيرة ناصر والسادات العطرة تخلو من العك، ولكن

كانت لكلٍّ منهما كاريزما. أما مبارك، فلا أعرف سر حرمانه منها. ربما لأنه كان يحافظ على صحته بطريقة تُثير وطنًا معظم سكانه بعافية. كانت صحته مستفزة لدرجة جعلت كثيرين يُطلقون أساطير من نوعية: «بيسافر كل ستة شهور يزرع نخاع عيِّل لسه مولود». في الفترة التي تحولنا فيها إلى شعب شبابه ورجاله رايحين جايين في الشوارع بملفات التحاليل الطبية، لم يغب الرئيس عن الأنظار، ولو حتى بنزلة شعبية، باستثناء رحلة علاجية إلى ألمانيا.

حتى الرياضة التي اشتهر بها (الاسكواش)، أكبر ملعب لها يسع ثلاثة آلاف متفرج بالعافية. لعبة لا تخصنا، ولا جمهور لها في مصر. وعندما قرر أن يزيد شعبيته فلعب «ماتش ودي» مع أحمد برادة، هبطت أسهم برادة بعدها فاعتزل اللعبة واتجه إلى الغناء. ستقول لي: «طب ما ناصر اشتهر بصورته وهو يلعب البنج بونج». سأقول لك هذا هو الفارق، فصور ناصر جعلت اللعبة شعبية، وأصبح في كل حارة ترابيزة بنج بونج قبل أن تحل محلها ترابيزات الـ«بلاي ستيشن».

حتى رهانه على كرة القدم كان خاطئًا، فتمسكه بالظهور في الصورة مع المنتخب جاء من خلفية غير كروية بالمرَّة. كان يعتقد أن المنتخب سيظل البطل إلى الأبد، ولا يعرف أن كل جيل كروي له دورة حياة قصيرة. ربط اسمه بالمنتخب، فلم تكن مصادفة أن ينهار النظام بالتزامن مع الخروج من تصفيات أفريقيا.

في الوقت الذي كان فيه لناصر مقعد في الصف الأول في حفلات أم كلثوم، وكان السادات يُكرِّم أباطرة الفن في عيد الفن سنويًّا، في الوقت الذي كانت فيه صورة الرئيس إلى جوار الفنان الكبير إضافة إلى كليهما، كانت علاقة مبارك بالفن والفنانين ضعيفة، ولكن هذا عيب الأسرة التي لا يوجد بها ابنة، فخِلفة الأولاد ليست دائمًا ممتعة، فهي أولًا «بتنشف» قلب الأب، وثانيًا تجعله بعيدًا عن التفاصيل التي تلمس القلب. لو كان للرئيس ابنة لاستفاد منها كثيرًا في اكتساب جاذبية شعبية. ربما لمح حزنها على ضحايا العبَّارة فاتخذ موقفًا أكثر حسمًا. ربما شعر باكتئابها على خلفية الشاب الذي انتحر لرفض تعيينه في الخارجية لأنه غير لائق اجتماعيًّا فتفكَّر في مسألة العدالة الاجتماعية. لكن خِلفته كانت أولادًا، وخِلفة الأولاد فقط تجعلهم يتحولون بمرور الوقت إلى مخبرين عايشين معاك في البيت.

كانت أناقة ناصر في القميص المحلاوي، وأناقة السادات في الجلباب البلدي، أناقة زعيم. لكن أناقة مبارك كانت تليق برئيس مجلس إدارة بنك. كانت جاذبية ناصر في الشعيرات البيضاء التي تليق بشخص ناضج مهموم بالبلد، وكانت جاذبية السادات في صلعته السمراء التي تليق بشخص داهية. لكن قل لي: هل المصريون من النوع الذي يتقبل بسهولة رجلًا تجاوز الثمانين من دون شعرة بيضاء واحدة على الرغم من أنه مشيِّب الجميع؟

لم يعرف الرئيس السابق طريق الكاريزما الشعبية، لأنه كان طيارًا يتحدى الجاذبية الأرضية ففقدها، طيارًا يُحلِّق فيرى الناس في حجمهم الطبيعي، ثم يراهم أقزامًا، ومع مرور الوقت يصبح «مش شايفهم أصلًا».

هامش ٢

حكى لي أحد أقارب الشيخ مصطفى إسماعيل، الذي كان يعيش خارج مصر، أنه عقب عودته واستقراره في مصر لاحظ أن الراديو لا يُذيع تسجيلات الشيخ مصطفى الذي تُوفِّي قبل عام، وأن التلاوات تتناثر في كل المحطات بأصوات كل المقرئين إلا الشيخ مصطفى إسماعيل، فطلب زيارة أحد المسؤولين الإذاعيين الذي وعده بحل المشكلة التي ربما تكون تقنية. ولم يحدث شيء، وبدأ المسؤول يتهرب من الاتصالات.

لجأ قريب الشيخ مصطفى إلى أحد رجال المخابرات، الذي أرسل معاونيه إلى مبنى الإذاعة للتحقيق في الأمر، واكتشفوا أن أحد الموظفين جمع أشرطة الشيخ مصطفى إسماعيل ونقلها إلى موسيقار كبير، وأنه يحتفظ بها في منزله.

كان اقتحام منزل هذا الموسيقار وقتها أمرًا يجلب المشاكل، فاتصل به قريب الشيخ مصطفى وواجهه بالموضوع في التلفون، فوجَّه إليه الموسيقار دعوة للزيارة، وفي بيته لم يُنكر الاتهام، ولكن برَّره بأن الشيخ مصطفى كان قامة موسيقية كبيرة، وأنه

أراد أن ينفرد بقراءات الشيخ مصطفى ليستمتع بها ويتعلَّم منها بعيدًا عن تشويش الإذاعات وتدني جودة البث، وأن الأشرطة في طريقها إلى الإذاعة. واعتبر قريب الشيخ مصطفى تصرف الموسيقار الذي تقدَّمت به السِّن محاولة لاصطياد نغمات جديدة من مكان غير مألوف!

هل كان المصريون أكثر «نصاحة» فيما مضى؟

أمرُّ بحالة خليط من القلق والكآبة. قرأت نصيحة في أحد كتب التنمية البشرية تنصح الواحد إذا مر بمثل هذه الحالة أن يدلل نفسه قليلًا بشراء ما قد يسعدها ويلطف الأجواء. نصيحة ممتازة، لكنها تحتاج إلى «سبونسر». تذكرت محلًّا للساعات في أحد المولات القريبة، يُقدِّم خدمة تغيير معصم الساعة، وعنده تشكيلة بألوان مبهجة لمحتها عنده قبل فترة. قلت لنفسي عملية سهلة ونظيفة وقليلة التكاليف، وبها تدليل للنفس، مع قرار بشراء المعصم الجلدي العريض ذي اللون الأحمر.

في المول، وخلال المسافة من بوابة الدخول إلى محل الساعات، مررت بالكثير من المحلات، وكنت أتأمل الأسعار الجديدة، وشعرت بانزعاج رفع ضغطي، ورفع

مستوى زنة الأذن التي تزورني كل قليل. كانت الزيادات مستفزة، ثم تذكرت كائن «الجَمَل»، وحسدته بشدة لأن الله خلقه بدون مرارة، ولذلك يعيش في نعيم لأنه ليس لديه ما يخاف عليه من «الفقع».

دخلت المول أداوي نفسي بـ«الشوبينج»، وخرجت وقد ازداد توتري، ولم أشترِ «الأوستيك» الأحمر.

«الشوبينج» علاج زائف، يستخدمه البعض لمداواة الكآبة، ثم سرعان ما يعيدهم هذا العلاج المؤقت إلى النقطة نفسها. هناك ما يُسمَّى «سلوك ديدرو» الذي يقول: «شراء أي شيء جديد يخلق حلقة مفرغة من الاستهلاك تضطرك إلى عمليات شراء أخرى لاحقة». الفستان الجديد الذي داوى جرحكِ العاطفي يقول «ديدرو» إنه سيحتاج إلى حذاء ثم قرطين ثم شنطة، وعندما لا تتوفر الإمكانية تعود الكآبة.

«الشوبينج» غدَّار، وهذه الأموال المتاحة من الأفضل ادخارها لأن الأمور لا تبقى على حالها كثيرًا. عندك كمال الدين حسين عضو مجلس قيادة الثورة، كان يشغل في وقت واحد أكثر من عشرة مناصب، من بينها: وزير الإدارة المحلية، ورئيس المجلس الأعلى للفنون والآداب، ونقيب المعلمين، ورئيس اللجنة الأولمبية المصرية، ورئيس مركز

البحوث النفسية، ورئيس لجنة الطاقة الذرية... ثم عُزل عنها جميعًا، وحُددت إقامته.

وعندك الفاتورة التي تحملك كمستهلك، ضرائب المبيعات والقيمة المضافة والخدمة، كانت قبل سنوات تذهب بمن حررها إلى السجن، فقد كان قانون مصلحة الضرائب واضحًا، «يمنع منعًا باتًّا تحميل المشتري أي ضرائب»، ونُشر في الصحف، وبدأ العمل به يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠[١].

وعندك سوهاج المدينة التي أنتمي إليها، شهدت أول مباراة كرة قدم رسمية غطت أحداثها جريدة «الأهرام» عام ١٩٠٣، وكانت بين تلاميذ مدرسة «إسنا» وتلاميذ مدرسة «سوهاج»، بحضور المفتش الإنجليزي بالتعليم، وسجلت «الأهرام» إعجابها بالتنظيم وارتداء كل فريق ملابس خاصة تميزه عن الفريق الآخر، وتحدثت عن مهارات الفريق الغريبة، والقدرة على الكر والفر. هذه البداية التاريخية لم يحدث بعدها وحتى يومنا هذا أن ظهر لسوهاج فريق في الدوري الممتاز إلا مرَّة واحدة جاءت مخيبة للآمال.

كان صاحب قرار اعتبار رأس السنة الهجرية إجازة رسمية هو رئيس الوزراء القبطي بطرس باشا غالي، وكان من مصادر فخر المصريين المعاصرين وقتها وجود رئيس حكومة بهذه

الروح. لكن الأمور سرعان ما تبدَّلت، فترأس بطرس غالي محكمة «واقعة دنشواي» وحكم بالإعدام على أربعة مصريين، ثم تبنى مشروع قرار لمد امتياز قناة السويس للمحتل حتى عام ٢٠٠٨، وظلت قراراته تتدهور، حتى تبدَّلت به الحال من أول رئيس حكومة مصري قبطي ذي شعبية، إلى أول مسؤول مصري يتم اغتياله[٢]، بعد أن أطلق عليه إبراهيم الورداني الرصاص، وانتقلت إليه بعدها المحبة التي كانت تحيط بالباشا، وغنى المصريون يوم إعدام الورداني:

قولوا لعين الشمس ما تحماشي

أحسن غزال البر صابح ماشي

وعندك مثلًا أخلاق المصريين، يمكنك أن تلمس تبدُّلها مقارنة برأي «ابن ظهيرة» فيها في منتصف القرن قبل الماضي، قائلًا: «من أجمل ما فيهم عدم اعتراضهم على الناس، فلا ينكرون عليهم، ولا يحسدونهم، ويسلمون لكل أحد حاله، العالم لعلمه، والعاصي لمعصيته، وكل ذي صنعة بصنعته، فلا يلتفت أحد إلى أحد، ولا يلومه لوقوعه في معصية». وكانت صفية زغلول (أم المصريين) إذا أرادت أن تمدح حُسن أخلاق فتاة ما تقول: «إنها لا تشرب القهوة، ولا تُدخِّن، ولا تضع ساقًا على ساق عند الجلوس»، وهذا طبعًا يسبق «بوز البطة» بسنوات طويلة. فضع في بالك أن الدنيا قلَّابة.

البنطلون المحزق (حزأ الشيء بمعنى طارده وساقه إلى ركن) الذي أسكرك في الفاترينة هو خمر مغشوش، وربما يأتي وقت يندم الواحد على النقود التي أهدرها في هذا الوهم، عندما تدهسه حقيقة الظروف. يقول المؤرخ البغدادي عن مجاعة الشدة المستنصرية: «ارتفعت الأسعار، وأقحطت البلاد، وهرج أهلها من خوف الجوع، حتى إنهم أكلوا الكلاب وصغار بني آدم، وأحرق في أيام قليلة ثلاثين امرأة أقرت كلٌّ منهن أنها أكلت جماعة، وباع المستنصر كل ما في قصره وجلس على الحصير، وطلع الفقراء الجوعى إلى القلعة وصاحوا ضد الجوع، فلم يرد أحد، فرجموها بالأحجار، ونزل وزير المستنصر على حمار إلى الناس ليهدئهم فأكلوا الحمار ثم أكلوا جنوده».

هناك أوقات يُعتبر لم الإيد فيها فريضة، وهو ليس عيبًا. قامت به ثورة يوليو في بداياتها، فسحبت السيارات الفارهة، وأمرت لكل وزير بسيارة شعبية صغيرة، وألغت مصيف الحكومة تقليلًا للنفقات (كانت الحكومة تنتقل بكامل هيئتها إلى الإسكندرية في الصيف). (الكل بيتزنق). وكان الزعيم مصطفى كامل يتاجر في «رُتب البكوية» لأنه كان في حاجة إلى تمويل نضاله (كان السعر من ٢٥٠ إلى ٥٠٠ جنيه حسب مرتبة البكوية). وكان ممن يبيعونها أيضًا أمير الشعراء

أحمد شوقي، وعندما اعترض أحدهم لدى الخديو عباس على الفكرة قال: «أنا لي فئة خاصة يبحثون عن مستحقي البكوية، ويعرضون عليَّ بعضًا منهم، وأنا أختار من أمنحه». وبالمناسبة، كان تنصيب شوقي أميرًا للشعراء برعاية الزعيم سعد زغلول بعد انضمام شوقي للهيئة الوفدية. وكان العقاد هو أول المعترضين على منح شوقي هذا اللقب، وكتب في جريدة البلاغ: «إن الشعر ليس إمارة يُعيَّن أميرها، بل جمهورية يُنتخب رئيسها».

وكان من المفترض أن تشتهر مصر بزراعة القطن والبطاطس بسبب جودة وغزارة المحصولين، إلا أن الباشوات أصحاب الأراضي قرروا، بعد الكساد الذي ضرب العالم سنة ١٩٠٧، الاكتفاء بزراعة القطن فقط، لأن الفلاحين كانوا يأكلون البطاطس التي زرعوها، وتم الاكتفاء بالقطن لأن هضمه عسر.

الزنقة واردة، وقد تدفعك إلى الأعاجيب. عندما كسد كل شيء عقب الحرب العالمية الأولى، وهجر الناس المحلات التي أفلست، طُردت العمالة، فظهر النشالون، بل إنهم أتوا جماعات من أوروبا لينشلوا في مصر، وعلَّقت المواصلات العامة لافتات «احترس من النشالين»، فكتب لهم أحد الصحفيين: «وما شكلهم حتى نحترس منهم؟». هذا مصير

أصحاب التجارة، فما بالك بغيرهم، أو كما يُقال: «إذا كانت العمايم تشتكي الفسا، إيش تعمل الألبسة؟».

«الدنيا مراية تُورِّيها تُورِّيك»، فلا «تُورِّيها» شخصًا يعالج أحزانه عند الكاشير، لأنها ستعيدك إلى هذا الطبيب. الظروف الحالية جعلت كل واحد يبدو في نظر الآخرين «زبونًا». استدراجك سهل لأن للتسويق أبالسة، ومَن يجدك جنيهًا فلن يفرط فيك. المصريون كانوا «أنصح» كثيرًا فيما مضى. حتى بداية القرن الثامن عشر كان الناس يدفعون للفنانين (غناءً، تمثيلًا هزليًّا، أراجوزًا) بعد انتهاء العرض وتقييمهم لما شاهدوه وما يستحقه. كان الدفع بعد الفُرجة وليس قبلها. وكان «المهر» حقًّا خالصًا للمرأة ـ بشهادة علماء الحملة الفرنسية ـ تقبضه كاملًا في يدها على عتبة باب الزوجية قبل أن تخطو داخل البيت، وليس لأحد أن يسألها عنه. تغيَّرت حتى نظرة المصريين إلى النقود، فهم مؤخرًا يسمون الجنيه «جندي». يُقال مثلًا: «باكو الشاي بعشرين جندي». وربما منحوه هذا اللقب الشعبي لأنهم صاروا يقفون أمامه «انتباه». لكن في الخمسينيات كان الاسم الشعبي الشائع للجنيهات: «سلامات». يُقال مثلًا: «علبة الشاي بخمسة سلامات». كانوا وقتها ينظرون إلى النقود على أنها طريقة لتبادل التحية مع الكوكب. كان هناك تصالح مع الأموال المتاحة في حوزة

أي شخص. وهي تسمية سرعان ما اندثرت، وعاد المصريون إلى استخدام كلمة «جنيه»، وهي مشتقة من كلمة «جن»، وجاء هذا الاشتقاق من صعوبة الإمساك بكليهما.

«الشوبينج» مُسكِّن، لكن أعراضه الجانبية ورطة. والأموال نعمة، لكنك لا تعرف دائمًا عواقب ما تشتريه. وسألوا يحيى حقي في الثمانينيات عما يُزعجه هذه الأيام، فقال: «يزعجني أنهم يبيعون السلاح «للطيبين»، وسيُفسد هذا حياتهم». وكان يشير ناحية أفريقيا.

«الشوبينج» سيفيدك في علاج كآبتك في حالة واحدة: إذا استخدمته في شراء ما قد يعالج كآبة أشخاص آخرين.

هامش ١

يوم ٢٨ سبتمبر، اليوم الأخير في حكم جمال عبد الناصر، نشرت صحيفة «الأهرام» بدء العمل بتنفيذ قرار إلزام المُلَّاك بتركيب مصاعد في العمارات التي تزيد على ٥ طوابق. ووصلت إلى مصر ١٦ ألف أنبوبة بوتاجاز منحة من تشيكوسلوفاكيا. ونشرت الجمعية التعاونية للبترول - بعد تكرار حوادث الاختناق - إرشادات مكثفة تطلب من المصريين الكشف الدوري الشهري على مدخنة السخان، وضرورة إغلاق الأنبوبة عقب الانتهاء من

استخدام الماء الساخن. وكانت أم كلثوم تضع اللمسات النهائية للأغنية الجديدة التي ستُقدِّمها في حفلها التالي: «القلب يعشق كل جميل». واتخذ مجلس إدارة النادي الأهلي قرارًا بتصعيد ٤ لاعبين من فريق تحت ٢٠ سنة للفريق الأول، وهم: حسن حمدي، عبد العزيز عبد الشافي، صفوت عبد الحليم، فتحي مبروك. وفي الوقت الذي كانت تشهد فيه محافظة الشرقية احتفالًا بإعادة افتتاح مدرسة «شهداء ٨ أبريل»، وتستقبل تلاميذ مدرسة «بحر البقر» الناجين من الحادث القديم، كانت مدينة طوخ تحتفل بإعدام ٣٠٠ ختم تحمل توقيع ٣٠٠ فلاح تم محو أميتهم ولم يعودوا بحاجة إلى «الختم». وفي الوقت الذي قرر فيه المطرب الشهير عبده السروجي اعتزال الغناء بعد توقف الطلب عليه، واحتفل حسبما غطت الجريدة بافتتاح محل للتجارة في العتبة، كان قرار وجيه أباظة محافظ القاهرة بتقديم قطعة أرض بإيجار رمزي لوزارة الثقافة لتقيم عليها «بيت الممثل»، وهو بيت لاستضافة العجائز من الممثلين بدون مقابل في رعاية طبيب مقيم و٣ ممرضات، بشرط أن يكون الفنان عضو نقابة الممثلين وملتزمًا بدفع الاشتراكات.

هامش ٢

كان الاغتيال السياسي الأكثر شهرة هو اغتيال الرئيس السادات طبعًا. وهناك حكاية غريبة متداولة عن السيناريو الرباني، تفصيلة صغيرة لولاها كان يمكن التعامل بشكل أسرع مع العربة التي

توقفت أمام المنصة ونزل منها قَتَلة السادات: قبل أن تتوقف هذه العربة بقليل، تقدَّم قائد طابور المدفعية لتحية المنصة، وحوله عدد من راكبي الدراجات النارية، وفجأة توقفت إحدى الدَّراجات بعد أن أُصيبت بعطل مفاجئ، ونزل قائدها وراح يدفعها أمامه، لكن سرعان ما انزلقت قدمه، ووقع على الأرض، والدراجة فوقه، فتدخَّل جندي كان واقفًا إلى جوار المنصة، وأسعفه بقليل من الماء. لذلك عندما توقفت العربة التي تحمل القتلة أمام المنصة، تعامل الجميع مع الواقعة باعتبارها عطلًا جديدًا أصاب عربةً هذه المرَّة بدلًا من «الموتوسيكل»، فكان الاهتمام بتوقفها باردًا، حتى بدأ إطلاق النار فارتبك الجميع.

من التفاصيل القدرية في هذا الحادث أيضًا، حفيد السادات الذي كان يقول عنه «دلوعة الأسرة» و«الحاكم الحقيقي للبيت»، وكان السادات يصطحبه معه في سيارته فيقف الحفيد في الشباك يرفع يديه ويُحيي الجماهير المتراصة على الجانبين، وهو مؤمن تمامًا أنها خرجت لتحيته هو وليس لتحية السادات. كان السادات يحمل حفيده يوم الحادث، وفجأة طلب من أحد ضباط الحراسة اصطحاب الولد إلى المكان الذي تجلس فيه والدته مع مدعوات الاحتفال، وبعدها مباشرة وقع الحادث، حسب رواية المذيع خيري حسن الذي كان يغطي الاحتفال وقتها، والذي قال أيضًا إنه اضطر مع زميل له للهرب والزحف على بطونهم من موقع الحادث إلى جامعة الأزهر.

ما الذي يدفع الملك فاروق لصداقة «كهربائي»؟

بينما أُقلِّب صفحات كتاب «وصف مصر»، إذ بـ«حمو بيكا» يظهر أمامي، وأكاد أسمع في الخلفية إيقاع أغنيات المهرجانات الممغنط. الموضوع قديم، استمع علماء الحملة الفرنسية إلى الموسيقى السائدة في فترة وجودهم، وسجلوا انطباعهم عنها قائلين: «الموسيقى السائدة في هذا البلد ضوضاء منفرة ومنافية للذوق السليم في الآذان، ومع ذلك فإن لهذه الموسيقى المليئة بالعيوب قدرة عجيبة على إدخال السعادة إلى الناس، وقد شاهدنا امرأة يغمى عليها من فرط الانتشاء، وهي تستمع إلى صوت أجش لأحد المطربين، صوت كنا نراه نحن صوتًا عاجزًا يبعث على التقزز».

قد تعتقد أنك اخترت مطربك المفضل، والحقيقة

أن المطرب هو الذي اختارك، هو صاحب أول قرار في هذه العلاقة، هو الذي اختار ما سيغنيه وبناء عليه اختار مستمعيه.

خُلق الغناء لكي نقول «الله».

الغناء سحر، وهو يتحدث بالنيابة عنك. غنَّى الناس في جنازة عبد الناصر، وهو الزعيم، ولم يغنُّوا في جنازة أم كلثوم، وهي المطربة أصلًا. حركت وفاة ناصر قلوبهم فخرجت «عدودة» تلقائية، يُودِّع بها أصحابها الراحل، ويواسون أنفسهم. لكن أم كلثوم لم تترك للناس ثغرة ينفذون منها إلى لحن يقول شيئًا جديدًا، فقد استهلكت الست كل الموسيقى قبل أن ترحل.

يمكن للواحد أن يُقيِّم حالة الآخرين النفسية بقوة الأثر الذي يتركه الغناء في مشاعرهم، ويكون الاكتئاب واقعًا عندما يتوقف تأثير الغناء بالكائن وتنقطع علاقته به. هناك حكاية عن الحاج فهمي الفيشاوي، صاحب المقهى الشهير الذي قال عنه نجيب محفوظ: «هذا المقهى الصغير المزين بالأرابيسك يُنمِّي الخيال، ويجعلك تفكر في تعاقب العصور». كان للحاج فهمي مقعد ثابت إلى جوار قفص عصافير لا تتوقف عن الغناء والملاغية المتبادلة مع الحاج فهمي الذي لا يتوقف عن إطعامها وتدليلها،

ثم صدر قرار إزالة للمقهى من المحافظ في الستينيات، وحاول كثيرون ومن بينهم نجيب محفوظ مقاومة القرار دون جدوى. تمت الإزالة، وبعد يومين مات الحاج فهمي في مكانه داخل المقهى، وبعدها توقفت العصافير عن الغناء ثم انقطعت عن الأكل والشرب، وبدأت تموت واحدة تلو الأخرى.

الطيور وحدها التي تقدم نفس نوع الموسيقى والغناء منذ خُلقت، ولم تتطور جملة لحنية واحدة، ومع ذلك لم يتوقف نجاحها حتى اللحظة.

عندما رجع السادات من سفرية مباحثات «كامب ديفيد» اتصل بمحمد عبد الوهاب، طالبًا منه أن يُقدِّم سلامًا وطنيًّا جديدًا بدلًا من «والله زمان يا سلاحي»، لن يصح أن نغني للسلاح ونحن على أبواب معاهدة سلام.

عثر عبد الوهاب على ضالته في نشيد سيد درويش «بلادي بلادي» الذي كان حجر أساس ثورة ١٩١٩، وقرر أن يعيد توزيعه، واضعًا ملاحظات الرئيس في باله. سلام وطني بتوجيهات أمنية. كان أول ما فعله موسيقار الأجيال أن نزع عن النشيد دسم الثورية، صانعًا منه نسخة تليق بدولة وقَّعت معاهدة سلام مع عدوها التاريخي. قامت فكرة عبد الوهاب على تهميد حماس النشيد، وكان

ناجحًا، حتى إن الدولة جعلت النشيد الجديد لسنوات طويلة مفتاح المصريين إلى النوم، فكان التلفزيون يختم به إرساله، معلنًا انتهاء فترة السهرة وضرورة التوجه إلى الفراش «عشان ورانا شغل بكرة». دولة كانت تُنهي يوم المواطن بالسلام الجمهوري، كانت تعرف جيدًا أن رتابة التوزيع ستسحب الحماس من دم المواطن وترجعهوله مخدة قطن، وهذا قمة الإعجاز الموسيقي، بدليل أن الدولة عندما توقفت عن إنهاء الإرسال بالسلام الوطني أصبحت تنيِّم المواطنين بصوت فاروق شوشة يقرأ القصائد التي تبدأ كلها بكلمة «عيناكِ» في «أوتار الليل».

بعدها تدهور الغناء الذي يعبر عن علاقة الواحد ببلده، حتى إنني لا أفهم ما السر في كون معظمها الآن أغنيات إيقاعية، وأيهما الذي سبق الآخر، الرقص أمام اللجان أم الأغنيات الراقصة. ينتظر الواحد أيام الاحتفال بذكرى أكتوبر[1] أو ثورة يوليو إلى جوار الراديو ليستمع إلى رصة أغنيات يجعلك أثرها تجدد علاقتك بالبلد، لأنها كانت تعبر عن صُناعها. لكنها الآن لا تخلو من التلفيق وأكل العيش، ويدور معظمها حول معانٍ مستعملة، محملة بتوجيهات ولا مشاعر، ربما هي ممتعة، لكنها كما يقول

«فيكتور جارا»[٢]: «الأغنيات الرديئة هي التي تمتعنا لكنها تتركنا فارغين».

الحياة صعبة، والكل «بيقاوح»، والأغاني الحلوة تعينك على «المقاوحة»، و«المكاوحة» هي المجاهرة بالخصومة، مثل خصومة ثورة يوليو مع فاروق. يحكي صاحب المطعم الذي مات فيه الملك، عن آخر وجبة: «طبق اسباجيتي بالمحار يكفي ٣ أشخاص، قطعة ستيك «فيورنتينا» تكفي ٤ أشخاص، والتحلية فاكهة ونصف تورتة». كان يقاوم أحزانه بالطعام. فاروق الذي خرج شابًّا من صلاة الجمعة في أحد مساجد لندن، فوجد مظاهرة تطالب به خليفة للمسلمين، ينتظر المعونة لينفقها في مطاعم إيطاليا.

الأموال التي سلمها فاروق لسكرتيره «بوللي» ليضعها في بنوك أوروبا طمع فيها الأخير. «بوللي» كهربائي في القصر أصبح صديق الملك ومنسق سهراته، وكان فاروق يحبه، حتى إنه بكى عليه عند خروجه من مصر لأنه اختفى. تم القبض على «بوللي» بعد الثورة، وفشلوا في الإمساك بأي دليل ضده في كل ما كان يجري من فساد تحت قيادته، لكن تمت محاكمته وحبسه بعدما عثروا على حشيش بكمية كبيرة في مكتب الملك الخاص،

وقالوا إن «بوللي» استقدمه للسهرات لأن الملك لم يكن مدخنًا.

لكن، ما الذي يدفع ملكًا لعقد صداقة مع كهربائي؟

يقول صلاح شعراوي (ضابط في الحرس الملكي وسفير سابق): «في بداية الأربعينيات، وخوفًا على فاروق الشاب من الانحراف بسبب صداقته مع رجال وشيوخ العائلة المالكة، أتوا له بمجموعة شباب مصريين في مثل عمره تقريبًا، متعلمين، ولديهم قدر من النضج، ومن عائلات متميزة، ليصبحوا شلته. لكن يبدو أن النتيجة كانت عكسية. بعد اكتشاف فاروق أن مستوى هذه المجموعة أعلى منه في العلم والثقافة والنضج والحكم على الأمور، أحس بأفضليتهم وهو الملك «برضو يعني»، فابتعد عنهم، ولم يكن أمامه سوى الاندماج مع مَن هم أقل، ولم يكن هناك غير حاشية الخدم: «بوللي» كهربائي القصر، و«كافاتشي» مدرب الكلاب، و«جارو» حلاقه الخاص».

في المنفى تبقى مع فاروق مبلغ «اتنصب عليه فيه» من الطلاينة في مشروعات وهمية، وعندما علم الملك سعود بالمأساة خصَّص لفاروق شهرية ٣٠ ألف إسترليني،

أنفقها فاروق في بحر الغدر متأملًا «شط الندالة المليان».
وكانت هذه هي نهاية أسرة محمد علي الذي يُقال عنه «باني مصر الحديثة». لكن الرافعي يقول: «مواهب المصريين ومُقدَّراتهم هي التي بنت اسم محمد علي»، وهو المعنى الذي جرى تمريره في أغنية وطنية لحليم تقول: «هندسها جمال وهنبنيها»، ليحدد بدقة قيمة ودور كل طرف.

سمعت أمي تدندن بهذه الكلمات عندما تمت إذاعة الأغنية ضمن فيلم وثائقي كان يعرضه التلفزيون عن ثورة يوليو، وعندما ظهرت صورة لناريمان مع زوجها الملك فاروق قالت أمي: «ناريمان كان وشها وحش على فاروق، اتجوزها وقامت الثورة»، فقال أبي بدون تفكير: «كان وشها وحش علينا كلنا». قلت ربما يكون أبي في حالة مزاجية سيئة، فقد سبق الكلام عن ناريمان كلام عن التزامات البيت، وعرف أنه على وشك أن «يكع» مبلغًا، و«كع» معناها «جبن المرء وضعف»، يعني ضعف عن الفصال في قيمة شيء انبهر بجماله فـ«كع» فيه، أو جبن عن رفض الدفع خوفًا من العقوبة (مثل الأموال التي نكعها في: فاتورة الكهربا، الضريبة العقارية، الضريبة الموحدة، القيمة المضافة، تنمية موارد الدولة، الكارتة). الظروف

صعبة، وقالها سيد درويش قبل مائة عام: «إحنا في بلد تجوع فيه العباقرة»، وهو ما لا ينطبق على صُناع الأغاني الوطنية حاليًّا.

هامش ١

مرَّة في إحدى إجازات ذكرى أكتوبر كنت أنتقل بين المحطات بحثًا عن أيٍّ من أغنيات هذا اليوم التي تعلقت بها منذ الطفولة (محافظتي الشرقية، بحبك يا بلادي، على الربابة، أم البطل، سمينا وعدينا)، فوجدت فيلم «أغنية على الممر» في بدايته، فجلست أنتظر أغنيته الخالدة «تعيشي يا ضحكة يا مصر». لم يمر ببالي أن أجد بطل الفيلم يتصل بي تلفونيًّا. كان الفنان الكبير محمود ياسين أمامي على الشاشة ومعي على الموبايل في الوقت نفسه. عرفت بعد أن قال لي أنا فلان، أنه بصدد مناقشتي في مقال كتبته قبل يومين عن أفلام أكتوبر. قلت ربما انزعج من ملاحظة ساخرة على ما قدَّمته السينما المصرية من أفلام عن الحرب، بالذات عندما قلت إن ياسين شارك في سبعة أفلام عن الحرب بذقن لامعة وسوالف كاملة ولم تُصبه طلقة واحدة.

لكن الفنان الكبير كان كبيرًا حتى في أسلوب نقاشه، وفي

طريقة عرضه لوجهة نظره. حكى لي الفنان الكبير كيف كان تصوير هذه الأفلام مرهقًا وضخمًا في الوقت نفسه، مما تطلَّب منه البقاء على الجبهة أكثر من عام تحت إمارة مخرجين كبار، بينهم مخرجون إيطاليون متخصصون في تنفيذ المعارك. حكى لي عن الجنود الحقيقيين الذين كانوا يتعلَّمون منهم كيف دارت الحرب. حكى لي كيف استحال على الممثلين تسلُّق خط بارليف لتصوير هذا المشهد، على الرغم من أن الجندي العادي كان يتسلقه في ثوانٍ أمامهم ليُعلِّمهم الأمر. حكى لي عن رفقة أسماء كبيرة من لواءات الجيش كانت تُوجِّههم وتُعدل عليهم في أثناء العمل، ودقة اهتمامهم بالتفاصيل. كانت قصصه ممتعة ومشرفة بشكل جعلني أراجع نفسي فيما كتبته، وأسأله إن كان صادف في المقال ما قد يفسد فخره بهذا الإنجاز، فرفض بكل أدب أن يُعلِّق على ما ضايقه، وإن كان باديًا أنه يرى أن هذه الأفلام ربما من الظلم أن يتم النظر إليها بعين ساخرة. قال لي إن اللقطات التي تم تصويرها مثلًا في «الرصاصة لا تزال في جيبي» هي اللقطات المستخدمة من يومها وحتى الآن في صناعة كل الكليبات والأغنيات الوطنية والتقارير ونشرات الأخبار والأفلام التسجيلية. قال إن جيله كان مخلصًا لهذه الأعمال دون توجيه من أحد، أو أي تكليف من جهة ما، وإن جيله فخور بها، ثم سألني ضاحكًا: «إنتو بقى عملتوا إيه؟».

كانت مكالمة للذكرى، أنهاها الفنان الكبير بملاحظته الذكية التي جعلتني أضحك ملء قلبي عندما قال: «وبعدين إنت

قلت إني اشتركت في سبعة أفلام عن الحرب وما حصلِّيش أي إصابة... إيه رأيك بقى إنهم في فيلم «الوفاء العظيم» قطعولي رجلي!».

هامش ٢

«فيكتور جارا» مطرب كان يغني للحرية في شيلي عام ٧٣، فقتله رجال الجنرال «بيونشيه». لم يفكر في الهرب ساعة القبض عليه. يقولون «ساعة القضا يعمى البصر»، وأنا أراها ميزة، فعمى البصر ساعتها يحميك من فذلكة قد تعقد الأمور، فذلكة تعني المُجمل دون تفصيل (تفذلك الرجل يعني أخذ الأمور «بالبركة»). عمي «جارا» عن الهرب فتحول إلى أسطورة ورمز للفن والحرية. طاردت زوجته قاتليه لفترة طويلة، حتى تمت محاكمة من تبقَّى منهم على قيد الحياة، وحُكم عليهم بالسجن بعد أربعين عامًا.

أين كانت تُباع تذاكر حفل أم كلثوم الذي أعلنوا أنه سيكون الخميس ٨ يونيو في تل أبيب؟

بعد عزوبية طويلة قرر صديقي الزواج. سألته عن تغيير الخطط المفاجئ. قال: «كنت أهرب من الزواج حرصًا على حريتي، ثم اكتشفت أنني لم أفعل بها شيئًا، كنت عبدًا لها بلا مقابل، ثم أدركت مع الوقت أن الشعور بالحرية لا علاقة له بالعزوبية أو الزواج، ولكن بأن تأخذ تجربة الحياة بجدية».

ذكَّرني كلامه بصلاح جاهين وهو يحكي عن سبب زواجه قائلًا إنه كان يعمل بالفن، يكتب ويرسم، لكنه لم يكن يُكمل عملًا، ولم يكن يفي بالتزاماته المهنية بانتظام، فأزعجه الأمر وكاد أن يُفسد حياته. وفسره أصدقاؤه بأن هذا راجع إلى عدم ارتباطه بأي مسؤوليات،

وأن الزواج وتكوين أسرة سيُغير كل شيء، وسيجعله يتعامل مع مستقبله بحسم، واشترى جاهين الفكرة من الأصدقاء، واكتشف مع الوقت صحتها.

الوقت يساعدك على وضع كل شيء في مكانه الصحيح. عند أول بث للإذاعة المصرية لم يعرف المذيع ماذا يقول، فكانت الجملة الأولى: «آلو آلو.. هنا الإذاعة». بدأت الإذاعة تابعة لوزارة المواصلات، فارتبكت المهام. ونقلوها إلى وزارة الشؤون الاجتماعية، فظهر النشاز الإداري. ثم جعلتها الحكومة هيئة مستقلة. وكانت دار الأوبرا[1] تابعة لوزارة الأشغال المسؤولة عن الكباري والمباني والسدود والطرق حتى استعادتها وزارة الثقافة. وكانت عند عبد الناصر تفصيلة عمل مهمة، يدخل عليه المسؤول ليشكو أو يقترح أو يطلب، فيقول له ناصر اذهب وضع كل ما قلته على الورق وأراك غدًا، يمنحه الوقت وفرصة عملية لمراجعة ما قاله.

تقول القاعدة إن «الوقت كالسيف، إن لم تقطعه قطعك». هناك معركة مجهولة تدور في الخفاء لا تعرف عنها شيئًا، والكلمة الأخيرة فيها للوقت. وكان الفلاحون قبل عدة عقود، ونظرًا إلى ضعف الرعاية الصحية، ينتظرون ـ لفترة محددة ـ وفاة من أنجبت حديثًا حسب قاعدة «الوالدة

قبرها مفتوح أربعين يومًا». وكان الوقت بطلًا في القضاء على واحدة من تفاصيل الحياة الزوجية في مصر، رصدها علماء الحملة الفرنسية، وهي أن الرجال لا ينامون إلى جوار زوجاتهم ويرون في ذلك إهانة. وتغيَّر مع الوقت دور الملاجئ والإصلاحيات التي كان مصدر دخلها في بداية القرن الماضي هو بيع البنات الصغيرات أو تأجيرهن للعمل كـ«شغالات». واحتاجت أخطاء عبد الناصر إلى وقت حتى تتبلور وتكشف له عن نفسها في صورة «نكسة».

الوقت قد يكشف جريمتك، وقد يكشف براءتك، مثل مذيع «صوت العرب» أحمد سعيد، الذي صار عنوانًا لنكسة يونيو ببيانات: لقد أسقطنا ١٠٠ طائرة للعدو، وسندخل القدس عصرًا، وفتحنا باب الحجز لحفل أم كلثوم في تل أبيب الخميس القادم. وهو الحفل الذي لم يلحق المسؤولون أن يطبعوا تذاكره، ويبنوا أكشاكًا خشبية في الشوارع لبيعها، بعد أن احتلت إسرائيل سيناء بالكامل قبل موعد الحفل بثلاثة أيام. المذيع الذي انتهت أسطورته بعد أن كان شائعًا في معظم البلاد العربية أن يذهب المواطنون البسطاء إلى المحلات يطلبون نصًّا «علبة أحمد سعيد»، يقصدون الراديو الذي يُطل منه صوت هذا الرجل. والحقيقة أن كل ما قاله كان بيانات عسكرية

تأتيه تباعًا من الشؤون المعنوية. انسحب الرجل، ورفض أن يدافع عن نفسه في ظروف قاسية تعيشها مصر.

بالمناسبة كانت «صوت العرب» سلاحًا مهمًّا لعبد الناصر، حتى في حرب التلقيح والتلسين. وقع خلاف بينه وبين الملك حسين ملك الأردن، فكانت «صوت العرب» تُذيع عقب النشرة دائمًا أغنية شادية: «سونة يا سونسون جيتلك أهو»، وصلت الرسالة إلى الأردن، فبدأت إذاعتُها عقب كل نشرة أخبار تُقدِّم أغنية: «البوسطجية اشتكوا من كُتر مراسيلي»، بقصد معايرة عبد الناصر بأصله المتواضع ووالده الذي كان يعمل بوسطجيًّا. فما كان من ناصر شديد الانتماء إلى طبقته إلا أن أصدر أمرًا للإذاعة بأن تُقدِّم عقب كل نشرة أخبار أغنية: «البوسطجية اشتكوا»، لكن بعد أغنية «سونة يا سونسون».

ساومت الدول الغربية عبد الناصر أكثر من مرَّة بالمساعدات لوقف بث «صوت العرب». وكان الاحتلال الفرنسي في الجزائر يحتكر بيع أجهزة الراديو التي صُنعت تحت إشرافه، حتى لا تظهر في السوق أجهزة تستقبل إرسال «صوت العرب». وبعد ضرب الإذاعة في ١٩٥٦ انطلقت معظم الإذاعات في بقية الدول العربية تدعمها (هنا صوت العرب من دمشق.. من بيروت.. من الخرطوم)، واستمر دورها

النضالي حتى بعد نكسة ١٩٦٧. وكان الإعلامي الكبير حلمي البلك، يُقدِّم وقتها برنامجًا اسمه «الشعب في سيناء»، كان ظاهره برنامجًا اجتماعيًّا يعالج شكاوى المواطنين، لكنه كان محملًا برسائل مخابراتية بالشفرة السرية للمقاتلين هناك.

الوقت هو أول ما يُنصح به لتكوين رأي سليم، وهو ما نعاني منه حاليًّا، حيث إن الأغلبية مصابة بـ«سرعة قذف الرأي»، وهي حالة يمكن علاجها إذا عرفت سببيها:

الأول: الجهل. أحيانًا يقول الواحد رأيه قبل أن يكتمل الحدث الذي سيُقدِّم بخصوصه وجهة نظره. لم يمنح الحدث الوقت الكافي لاتضاح معالمه وتوابعه، ولم يمنح نفسه الوقت الكافيْ لمذاكرة الموضوع. يُقدِّم رأيه سريعًا وهو لا يمتلك ما يساعده على ذلك سوى أنه «عنده إنترنت في البيت».

الثاني: رغبة في أن تقول كلامًا يُعبِّر عن أشياء مدفونة بداخلك أكثر من تعبيره عن وجهة نظرك، كلامًا يُعبِّر عن «شعورك بالخوف، تأييد أعمى، كراهية عمياء، تصفية حسابات، رغبة في التشويش أو التضليل، لفت الانتباه»، فتجري مدفوعًا بهذه المشاعر المتأججة، محاولًا إخمادها بتقديم رأيك، حتى تستطيع أن تستعيد توازنك بسرعة.

يقول الخواجة إن الوقت لديه طريقة رائعة لتوضيح الأشياء التي يجب أن نهتم بها. قبل سنوات كنت أُهنئ العم

سيد حجاب[٢] على تتر كتبه لأحد المسلسلات، قائلًا إنه تتر ناجح ومكسر الدنيا، فقال لي: «نصيحة، لا تقل عن شيء إنه ناجح قبل أن تمر عليه عشرون سنة». وهو اختبار إذا أجريته الآن فستفاجأ بطوفان من الأشباح يُطل من ذاكرتك.

يستغرق القرار ثانيةً، ويحتاج تقييمه إلى وقت طويل، والأمر لا يتعلق بالحياة الشخصية فقط. عندما ظهر اختراع المناديل الورقية عام ١٩٠١ في سويسرا، احتار الناس في تقييمه، وقال عنه كثيرون وقتها إنه اختراع غير مهم، لكن مع الوقت صار تفصيلة كوكبية. واحتاجت مصانع اللبان بعض الوقت حتى تستطيع أن ترفع من على العبوات تحذيرًا ألزمتها به الحكومة الأمريكية يقول: «يجفف اللعاب وقد يجعل الأمعاء تلتصق». وهناك شخص طيب اخترع ذات يوم «الفتارين»، ليمنحك الوقت الكافي لتفادي الندم، فالناس بطبعها مرتبكة، والأمور تبدو ملتبسة معظم الوقت. عندك مثلًا جملة «ارفع إيدك لفوق»، يقولها اللص والشُّرطي، وإذا سمعتها من خلف ظهرك فستحتاج إلى بعض الوقت لتحديد هدف صاحبها.

هناك عدد ٢ خدعة بخصوص الوقت، يقع فيهما كثيرون.

الخدعة الأولى هي اعتقادك أن الوقت يمر على الجميع ما عدا أنت. كنت أستمع في مرَّة أنا وصديق إلى أغنية جديدة

لمحمد منير. قال الصديق: «مش ده منير بتاع زمان!». قلت له: «وهل تعتقد أنك لا تزال الشخص نفسه الذي كان يستمع إلى منير «زمان»؟ الشخص الذي كان يستمع إلى منير، ويغني معه «شبابيك»، وهو يضع الووكمان في أذنيه، ويمدِّد ساقيه تحت البطانية في غرفته الصغيرة وإلى جواره ورق درس الكيمياء، هل هو الشخص نفسه الذي يستمع إليه الآن وهو يرتدي كرافتة الشغل في عز الحر، ونزل من بيته شايل هم أقساط حان موعد استحقاقها، ومراته مسمعاه كلمتين ناشفين، و«مزنوق» ساعة ونصف على المحور في انتظار أن يصل إلى ميدان لبنان؟ لقد كبرت، وتغيرت قائمة الأشياء التي تلمس مشاعرك وتؤثر فيك. أنت ومنير، كلاكما تغير، وتفرقت بكما سبل النغمات التي كانت تجمعكما «زمان»».

الخدعة الثانية تكمن في اعتقادك الخاطئ أنك تمتلك منه الكثير.

هامش ١

في مقال لأستاذنا الكاتب الكبير صلاح حافظ، نُشر في الثمانينيات، يحكي أن دار الأوبرا كانت تتبع ذات يوم وزارة

الأشغال المسؤولة عن الكباري والمباني والسدود والطرق، ويقول إن منطق الحكومة وقتها أن الأوبرا مبنى يحتاج إلى صيانة، أما المحتوى الذي يُقدِّمه المبنى، والفن الذي يطرحه على الناس، فمسألة تخص الفنان والجمهور ولا شأن للحكومة بها.

وقال حافظ إنه يتمنى عودة هذا المنطق، بحيث يقتصر دور وزارة الثقافة على صيانة أدوات الثقافة، وتعبيد طرقها، وتطهير ترعها ومصارفها، الأمر الذي يجعلها وزارة «تخدم الثقافة» لا وزارة «تحكم الثقافة».

وقال حافظ إنه نتيجة سيطرة الدولة على الثقافة حدث أن «بدلًا من أن يتدفق ضوء الثقافة ويغمر أجهزة الإدارة، تسللت أمراض الإدارة إلى جسم الثقافة».

وقال إن هذا لا يعني أن الثقافة لا تحتاج إلى قيادة. ولكن قيادة مَن؟ حددهم صلاح حافظ بـ«الأساتذة الذين يسعى المثقفون إلى التعلُّم منهم، والرواد الذين يقتحمون آفاقًا جديدة، والمبدعين الملهمين للأجيال».

هامش ٢

قبل عدة سنوات، قررت أن أكتب مقالًا عن عمنا سيد حجاب وقيمة ما يزرعه داخل الوجدان المصري، واستشهدت ببعض ما كتبه، وكان من بينه أغنيات فيلم «البريء»، ويبدو أنني توقفت عندها أكثر من غيرها، ونُشر المقال.

صباح يوم النشر رن هاتفي في الثامنة صباحًا، وكان واضحًا أنها مكالمة قادمة من إحدى مدن القنال. قبل أن أُلقي تحية الصباح قال لي المتصل: «أنا عبد الرحمن الأبنودي». وفكرة أن يبدأ يومك بمكالمة من الأبنودي، تؤدي إلى احتباس في الأحبال الصوتية مصحوبة بلعثمة عالية الصوت يغلب عليها الهذيان. أنهى الخال هذه الحالة سريعًا، ووجَّه الضربة القاضية قائلًا «إنت ما بتحبنيش» مصحوبة بتنويعات على هذه الفكرة، لأنني نسبت أغنيات فيلم «البريء» الرائعة التي كتبها الأبنودي، إلى سيد حجاب. حاولت عبثًا أن أقول له إن خطأ كاتب صغير السن لن يُغيِّر تاريخ شاعر كبير، وإن جهلي يمكن تجاوزه، خصوصًا أن هناك مساحة لإصلاح الخطأ، فقال الخال بامتعاض وهو ينهي المكالمة: «لما نشوف». بدأت المكالمة في الفراش، وعند انتهائها وجدتني أقف ببنطلون البيجامة أمام باب الشقة حيث الشبكة في أفضل أحوالها، بما يسمح لي ألا أُفوِّت أي كلمة مسح بها الخال كرامتي، فهي شرف عظيم.

وقفت أفكر كيف أفسدت صباح شاعر عظيم، ثم عظمت الغصة في قلبي إذ اكتشفت أن هذا الأحمق الواقف ببنطلون البيجامة قد أفسد صباح شاعرين كبيرين، وليس صباح شاعر واحد. وربما كان الأبنودي سيغفر لي إذا نسبت أغنياته إلى شاعر آخر، لكن هل يغفر لي سيد حجاب أنني مدحته بأشعار شخص غيره؟ قلت لنفسي لا بد أن أتصل به لأعتذر له أيضًا عن هذا الخطأ قبل أن يقرأه أو يخبره به أحد.

اتصلت به، وقلت اسمي. قال: «صباح الفل»، ثم قال: «ها؟ الأبنودي كلِّمك ولَّا لسه؟»، ثم ضحك، فوقعت في الضحك لدرجة أنستني الكلام، وظللنا نضحك وأسمع صوت ضحكاته ثم صوت كحته. قال: «كنت متأكد إنه مش هيعديها». قلت له: «بهدلني». قال: «ما تزعلش، ده شاعر وبيغير على شغله».

حكى لي عن تلك الحساسية الموجودة بينهما، نافيًا أنه يعاني منها. وخمنت أنها حساسية لها علاقة بالمنافسة على محبة عمار الشريعي، شريك كلٍّ منهما في أهم مساحة يمكن أن يُعبِّر من خلالها الشاعر عن قدراته وأفكاره وعن نفسه: تترات المسلسلات الكبيرة.

أنهيت المكالمة، وكنت هذه المرَّة أقف في الشرفة أستطعم صوت ضحكة عم سيد. بعدها رن الهاتف مرَّة أخرى، وتوقعت أن المتصل هذه المرَّة قد يكون عم أحمد فؤاد نجم «علشان تكمل»، لكنه كان عم سيد وقال: «نسيت أشكرك على المقال».

لماذا قام محمد علي بتأميم البُن؟

فقرة الإفطار في مكاتب الموظفين صباحًا يقف خلفها اللواء أحمد رشدي. عندما كان وزيرًا للداخلية شكَّل قوات اسمها «شرطة الانضباط»، تطارد الموظفين المتسربين من عملهم، ومن لم يكن لديه تصريح بالخروج كان يتم التحفظ عليه حتى يتسلمه مديره. طاردت القوات الموظفين عند عربات الفول، فأصبحوا يحملون معهم الإفطار إلى مكاتبهم. رحل رشدي وبقي الخوف. انتقل طبق الفول إلى المكاتب حتى يلتهمه الموظفون «حتتك بتتك» بذهن رائق (و«حتتك بتتك» في القاموس الفرعوني تعني: اللحم والعظام). أحمد رشدي هو الذي اكتشف رأفت الهجان وقدَّمه إلى المخابرات. عندنا جاسوسة أخرى هي هبة سليم[1] بطلة «الصعود إلى الهاوية»، التي كانت تقضي وقتها في السجن بعد القبض عليها في التزيُّن

ولبس الباروكات، وكانت تمتلك منها ستًّا، وتعطير جسدها وملابسها بالبارفانات الباريسية، وكانت تتوقَّع أن تتدخل إسرائيل للإفراج عنها. وعقب تنفيذ حكم الإعدام، وبمجرد وصولِ الخبر إلى سجن النساء في القناطر الخيرية، قامت معركة حامية بين المسجونات والسجَّانات للفوز بالماكياج والباروكات التي تركتها الجاسوسة.

عالج الفن المأساة، وهناك من عالج بالتاريخ. ابن سينا مثلًا، اكتشف طريقة للعلاج باستخدام «المومياوات»[٢]، وقال إنها تعالج أمراضًا كثيرة، منها «الكُبة» (و«الكُبة»: الخُراج الكبير). والوصفة: تناول مسحوق المومياء مع خلطة من البردقوش والزعتر والشعير. ولاقى هذا العلاج شعبية في أوروبا بعد أن أقر به جراح البابا في القرن الثالث عشر، وصار الناس يجمعونها من الجبَّانات لبيعها. مثلما جمع ضباط يوليو «خواتم الزواج» من المواطنين لتقوية الجيش في نوفمبر ٥٢، بحملة تبنتها الصحف. وتبرعت زوجات مصر بأعز ما يملكن حبًّا في الوطن. وقد قال الإمام الشافعي: «من لم يتزوج مصرية لم يكتمل إحصانه». أي أنها تُعلِّم أجدع رجل «العفة». وهي جملة مدح، لكنها من فئة المديح المسموم الذي يعاقب به الناجحون.

النجاح لا يُغتفر مثلما يقول الإنجليز، ولا بد أن ينالك

بعض العقاب عليه: هناك من يعتبر نجاحك خيانة، لأنك غيرت ولم يكونوا مستعدين. وطوال الوقت ينبهك الناس إلى خطورة السباحة ضد التيار، وهذا ليس خوفًا عليك، بل على أنفسهم، لأنك إذا سبحت ضد التيار ونجحت في ذلك فستحرجهم جميعًا. هناك من يتعامل مع الأمر بعقلانية، ويرى الهجوم على الناجحين ضريبة مقبولة. وهناك من يخطط للهجوم ونيته ضرب حماسك، ويقذف الصِّبية الصغار القطارات المسرعة لأنها تجاوزت السرعة المتفق عليها ضمنيًّا.

رجع رفاعة الطهطاوي من بعثته إلى باريس نجمًا، يحتفل به الجميع في كل مكان، لكن ظل هناك من يقف له على الواحدة من بعيد في انتظار فرصة، حتى ألَّف كتابًا اسمه «المرشد الأمين للبنات والبنين»، وعثر المتربصون بين سطور الكتاب على ما اعتبروه تحريضًا سيُزعج الخديو إسماعيل، الذي غضب بالفعل فقرر نقل الطهطاوي من موقعه كوزير للمعارف العمومية إلى موقع جديد كناظر لمدرسة الخرطوم الابتدائية، وظل هناك ثلاث سنوات، رجع بعدها يحكي عن معاركه مع البعوض، والرعب الذي كان يصيبه من خراطيم الأفيال المنتشرة في شوارع الخرطوم.

انزعج محمد علي من النجاح الساحق الذي يحققه تجار البُن والدقاقون في بر مصر. لم تكن تجارتهم خاضعة للدولة، وكان المصريون متعلقين بالقهوة التي جعلوا لها مواعيد ثابتة في يومهم، وكانوا طوال اليوم رايحين جايين على الدقاقين الذين يطحنون الحبوب ويحمصونها، فرفع عليهم الضرائب، فرفعوا هم الأسعار، ولم ينزعج الناس وظلوا على عادتهم، فكان قرار محمد علي بـ«تأميم البُن»: الدولة فقط هي التي ستستورد الحبوب، وستمنح التجار حق الدَّق والتحميص فقط مقابل نسبة للدولة.

من أكثر التفاصيل المزعجة في الشخص الناجح: «الإصرار». هذا النَّفس الطويل يكرش نَفَس المتربصين، وهو بالمناسبة شرط أساسي لا غنى عنه. قدَّم عبد الحليم حافظ أكثر من خمسين أغنية، ولم يترك مجالًا لم يطرقه: غنى تترات برامج إذاعية (مثل البرنامج الفكاهي «ساعة لقلبك»)، وشارك في دوبلاج الأفلام الأجنبية، وظل يكافح دون أن يهتم أحد بما يفعله، حتى وصل إلى أغنية «صافيني مرَّة»، وقال عنها: «دي الغنوة اللي خلت الناس تلتفت وتسأل مين اللي بيغني ده». تعلَّم حليم من أصوله كفلاح مهارة الإصرار، وكان الفلاحون وقتها إذا تأخر

حمل الزوجة يعيدون مراسم الزواج كلها من أول وجديد، الخطبة وعقد القران والفرح مرَّة واثنتين وثلاثًا، حتى يحدث الحمل.

جمعت الثورة خواتم الزواج في قرار مشابه لقرارات الحاكم بأمر الله، وهو الرجل الذي وصلنا تاريخه مشوهًا، فقد منع أكل الملوخية والجرجير والقرع بسبب انتشار الأوبئة، وأمر الناس أن يعملوا ليلًا وينامو نهارًا لتظل القاهرة متيقظة بعد انتشار السرقات واختلال الأمن. كان أول من وظَّف عمال نظافة لكنس الأزقة والشوارع. استدعى ابن الهيثم من العراق ليبني خزانًا في أسوان ينظم تدفق مياه النيل، لكن «القاشية وقتها لم تكن معدن» (القاشية كلمة تركية معناها الصحة). ألغى الحاكم بأمر الله الضرائب، وتدخَّل بنفسه لتحديد سعر كل سلعة، حمايةً للناس. وكان موكبه متقشفًا بلا حراسة، يركب فوق حماره، ويسير معه مساعد بورقة وقلم يكتب شكاوى الناس. وفي يوم خرج على حماره ولم يعد إلى الآن، اختفى وانتهت أسطورته بدون مقدمات. وفي نهاية القرن التاسع عشر ظهرت الهَيضَة (الكوليرا) في بر مصر، وصدرت جريدة الأهرام بتاريخ ٢٦ يوليو ١٨٨٢ وهي تحمل في صفحتها الأولى تعليمات الدكتور إبراهيم تقلا التي طالب

فيها المصريين ـ لمواجهة الوباء ـ أن يكون مأكلهم خاليًا من الخضراوات الناضجة (الخيار، الكوسة، الملوخية، الجرجير، إلخ)، وهي النصيحة نفسها التي قدَّمها الحاكم بأمر الله قبل ثمانمائة عام، لكنها ظلت حتى اليوم محل سخرية.

هامش ١

عندما جرى تسليم الجاسوسة هبة سليم إلى مأمور السجن، رافقها تقرير أمني يقول إنها شخصية شديدة الخطورة، ومن المحتمل أن يقوم أحد أجهزة المخابرات الأجنبية بعملية لتحريرها. وهو ما جعل مأمور السجن ومعاونه يسقطان في حيرة عند وصول موعد تنفيذ حكم الإعدام، فهو يعني ضرورة عرض المتهمة على طبيبة السجن وقياس وزنها، فخافا أن تؤدي هذه الإجراءات إلى تسرُّب خبر تنفيذ الإعدام. ظلَّا يفتشان عن فكرة، حتى دخلت عليهما إحدى السجَّانات تطلب سرعة عرض المتهمة على طبيبة السجن لأنها تشعر بآلام غير محتملة، فصار الفحص سهلًا، وبقيت مسألة الوزن.

في غرفة الطبيبة كان هناك ميزان طبي، فجاءت الفكرة

للمأمور. وقف على الميزان قائلًا: «أراهن أنه خربان»، ثم طلب من معاونه أن يجربه، فأكد الملاحظة، ثم التفت إلى هبة سليم متسائلًا: «يا هبة، إنتِ عارفة وزنك؟»، فقالت بكل ثقة: «نعم»، فطلب منها ألَّا تذكر الرقم وأن تُجرِّب الميزان الذي يشكُّون في صلاحيته. وقفت هبة على الميزان، وتأملت الرقم، ثم صدرت عنها شهقة كبيرة، فظن الضابطان أن هبة كشفت الخدعة، لكنها صاحت بفزع: «أنا زِدت اتنين كيلو».

استيقظت الجاسوسة يومًا على أوامر بالتهيؤ للخروج مع الحراسة لمقابلة شخصية مهمة لا يعرفها المأمور. خمَّنت هبة أنها جيهان السادات، لأنها قدَّمت إلى الرئاسة التماسًا للإفراج عنها، ولا بد أنه قُبِلَ تحت ضغوط دولية. خرجت هبة والابتسامة تعلو وجهها طوال الطريق، حتى توقف موكب الحراسة أمام حبل المشنقة.

هامش ٢

معجزة التحنيط كانت أبسط مما يتخيل الواحد. يملأون الحقن بزيت الصنوبر، ثم يحقنون به الجثة عبر فتحة الشرج حتى يمتلئ جوفها تمامًا، ويسدون كل المنافذ حتى لا ينساب الزيت، ويملحون الجسد لمدة سبعين يومًا، وفي نهايتها يسحبون من الجوف الزيت الذي أدخلوه. وقوة هذا الزيت عظيمة، حتى إنه يجرف معه الأحشاء التي تكون قد تحلَّلت.

أما اللحم فيذيبه الملح المستخدم (ملح النطرون). وبذلك لا يبقى سوى الجلد والعظم. وبعدها يلفون الجسم كله بأشرطة من الكتان الشفاف مغطاة بالصمغ.

كيف تعاملت مصر «الولّادة» مع أزمة «البطن قلّابة»؟

أجلس أنا واثنان من أصدقائي في صالة نبطشية القسم، في انتظار تحرير محضر يخص شقة أحدهما. كلما اقتربنا من أمين الشرطة الأربعيني المسؤول عن المحاضر، كان يوبخنا قليلًا على استعجالنا، ويطلب منا الانتظار. طال الوقت، ثم رن هاتف أمين الشرطة، بدأت المكالمة هادئة، ثم سرعان ما دخلت في منحنى عاصف. وقف الأمين ليغادر الصالة وهو يصيح مبتعدًا: «أنا صبرت عليه، وبلعته كتير، بس اللي عمله ده كان... كان... كان...». بدا واضحًا أن الأمين يفتش عن الكلمة المناسبة، وسرعان ما وجدها بعد أن مر من باب الصالة، فقال: «كان البلحة اللي قطمت ضهر البعير». غرقت أنا وصديقاي في الضحك، ثم تماسكنا مع عودة الأمين إلى

الصالة. جلس إلى مكتبه، وسألنا بخجل قوته ٢٥٪: «هيَّ مش البلحة.. صح؟». شعرنا بالحرج والاندهاش من أنه لمح ضحكاتنا بينما يخرج. قلنا له: «القشة». لم يُعلِّق، لكن صديقي كان صادقًا وهو يُعبِّر عن مشاعره قائلًا: «بعد أمي الله يرحمها، إنت أول واحد أقابله بيشوف من ضهره». ضحك بقوة، أعجبه مزيج خفة الدم والتقدير المستتر لإمكانياته البوليسية. ثم سألنا: «عايزين تعملوا محضر إيه؟».

كانت لطافة صديقنا، وسرعة بديهته، مفتاح إنجاز المهمة.

هناك حل لكل مشكلة في التعامل مع «الغباء، النفسنة، قلة الخيال، الغرور»، إلا ثقل الدم، فلا حل له، لأنه عجينة من كل ما سبق.

«خفة الدم» هي سرعة جريانه في العروق، كناية عن وجود حياة متدفقة، صحيح أنها موهبة، لكن لا تزال لدى كل شخص فرصة على الأقل لكي يتدرَّب على ألا يكون «بني آدم رخم». و«الرخامة»: احتضان البيض. يُقال رخمت الدجاجة بيضها أي: احتضنته. وتفادي حضن البيض أمر لا علاقة له بالنكات وبالإفيهات، ولكن له علاقة بأن تمتلك قدرًا ما من «اللطافة». الاعتراض الذكي

لطافة، مثلما اعترض المصريون على احتكار أحد الولاة للبطاطا وارتفاع أسعارها، فأطلقوا مثلًا يُعدِّد مساوئها وصار شائعًا: «البطاطا تِكبَّر الخرية، وتِتقَّل الجرية»، كناية عن الإمساك وزيادة الوزن. أو مثلما علَّق المصريون على كون البرلمان «زي قِلته»، بنكتة عن اجتماع السادات مع قيادات لتغيير اسم مجلس الأمة، فاقترح أحدهم اسم «المصطبة»، واقترح آخر اسم «الديوان»، واقترح وزير الداخلية اسم «باتا»، فسأله السادات: «إشمعنى؟»، فقال له: «علشان بنجيب من كل دايرة انتخابية جوز». وعندك حكاية أخرى عن لطافة الطُّرق التي تمرد بها المصريون عندما شدَّد الاحتلال قبضته عام ١٩٢٦، فأعلن الشعب مقاطعة البضائع الإنجليزية وفي مقدمتها «الكرافتة»، وكانت تفصيلة أساسية وقتها، وجرى ارتداء المنديل المحلاوي كرابطة عنق، فامتلأت الشوارع بالمناضلين الساخرين.

وقد تأتي اللطافة من تصالح الواحد مع نفسه، مثل السادات الذي اعتاد في كل مرَّة يستخدم فيها سكين حشو وتنظيف البايب، أن يمسحه في أقرب شيء له، سجادة أو مفرش، ولاحظ في مرَّة ارتباك ضيوفه من هذا التصرف العشوائي، فقال لهم ضاحكًا: «مفيش فايدة، فلاح برضو».

من اللطافة أن تمتلك خيالًا مغامرًا، مثل وجيه أباظة عندما كان محافظًا للبحيرة، ولاحظ تزايدًا كبيرًا في أعداد المتسولين والمتشردين في شوارع دمنهور، فقرر أن يجمعهم ويصنع منهم فرقة فنون شعبية، فأحضر لهم المدربين، ونجحت الفكرة، وسافرت الفرقة كثيرًا لتُمثِّل مصر في المهرجانات، ويقال إنه لا توجد صورة تجمع عبد الناصر مع فرقة رضا لكن هناك صورة تذكارية تجمعه مع فرقة دمنهور، وقيل وقتها كيف يظهر الرئيس في صورة مع مجرمين سابقين، إلا أن السؤال دُفن مع أصحابه.

من اللطافة أن تمتلك دبلوماسية تُعينك على المواقف المحرجة، مثل حرج المشاهير من سؤال الأهلي والزمالك. سُئل عبد الوهاب عن الموضوع فقال: «كل بيت في مصر فيه واحد زملكاوي معكنن على بقية الناس اللي معاه في البيت». وهرب نجم كبير من السؤال ذات مرَّة وكنا في ضيافته، وغيَّر الموضوع وقال: «الزمالك هو أول نادٍ يلعب له ابن رئيس جمهورية»، وذكر «لومومبا» زعيم الكونغو الذي حارب الاستعمار حتى تم اغتياله، وتولَّت مصر القيام بعملية مخابراتية لتهريب أطفاله إلى مصر، وكان لسعد الدين الشاذلي دور كبير فيها، وعاش أبناء الزعيم في مصر تحت رعاية ناصر، ولعب ابنه الأكبر

«فرانسوا» ضمن فريق الزمالك (جيل فاروق جعفر)، ويُقال إن مستوى فنياته كان عاليًا، لكنه عاد مع أسرته إلى بلدهم بعد فترة.

لطافة امتلاك حيلة أبطال القصص الشعبية[1]، مثل الإسكافي صاحب الأسطورة الشعبية «تشميع الفتلة»، الذي كان يعمل في محل لإصلاح الأحذية، وسرق منه بعض الأدوات، فقدَّمه صاحب المحل للمحاكمة، وسأله القاضي عما كان يفعله ساعة السرقة، فقال له: «كنت أشمع الفتلة»، فسأله عما يقصد، فأخرج خيطًا طويلًا ووضع بدايته في يد القاضي وقال: «أُثبت طرف الخيط في نقطة ثابتة مثلما فعلت الآن»، وأضاف وهو يبتعد: «ثم أمرُّ عليه بالشمع هكذا»، وتحرَّك ممسكًا بالخيط وهو «يشمعه» ويبتعد، بينما القاضي ممسك بطرف الخيط، حتى اختفى الإسكافي تمامًا. أو أسطورة «شطارة ولَّا راحة بال؟» التي تسأل عن الأكثر أهمية لإنجاز المطلوب منك، بطلها شابٌّ ذهب إلى صائغ ماهر، وطلب منه أن يصنع له خاتمًا بمواصفات معينة، فأنهى الصائغ عمله سريعًا وقدَّم الخاتم إلى الزبون الذي اندهش وسأله: «شطارة ولَّا راحة بال؟»، فقال الصائغ بغرور: «شطارة طبعًا». وكان للصائغ زوجة شابة جميلة، فأرسل إليها الزبون سلة ممتلئة بالفاكهة

والورود مع رسالة إعجاب بلا توقيع. احتار الصائغ وزوجته في الهدية وهوية مرسلها وما يقصده، وتوترت الأجواء، ثم عاد إليه الزبون بعد يوم وطلب منه صناعة خاتم جديد، وتأخَّر الصائغ كثيرًا في القيام بالمطلوب، ومرت ـ بدون إنجاز ـ عدة أيام، عاد إليه بعدها الزبون يسأله: «شطارة ولَّا راحة بال؟»، فقال الصائغ بيقين كامل: «راحة بال طبعًا».

انتقاء تعبيراتك مع كبار السن، واتقاء شر المصطلحات السهلة ساعة الخلاف: «كبرت وخرفت» أو «كِبرت ومخك نِعِم»، لطافة. يقول الخواجة في مديح الشيخوخة[٢] إن «صوت العجوز هو الأكثر مدعاة للاستماع والاقتناع، لأنه تخلَّص من تشويش الشهوات». تفادي القلش المهين لطافة ضرورية، عندك مثلًا «قلشة» مبارك الشهيرة: «خلِّيهم يتسلوا»، عرفنا جميعًا بعد وقت قصير أنها كانت «القلشة» التي قصمت ظهر البعير.

اللطافة ليست غريبة علينا كمصريين. قال ابن خلدون: «أهل مصر يميلون إلى الفرح، والمرح، والخفة، والغفلة عن العواقب». وقال المقريزي: «كأنهم فرغوا من الحساب». الفن في طبائعهم، لكن «الرَّك» على المناخ (و«رَكَّ الشيء» بمعنى: اختبر عمقه).

عندما فاز تمثال مصغر لمحمود مختار اسمه «نهضة مصر» في مسابقة فنية صارمة في باريس، تبنَّت الصحافة الدعوة لجمع التبرعات لبناء نموذج أكبر لهذا التمثال الذي أسهبوا في وصف شكله ومعانيه، ليكون في مدخل العاصمة، فانهالت التبرعات، ولم يخجل البعض من التبرع ولو بستمائة مليم، وعطلت العائلة المالكة المشروع لرغبتها في أن يكون مدخل العاصمة لتمثال الخديو إسماعيل، وضغط الشعب فتم نقل المشروع إلى موقعه الحالي أمام جامعة القاهرة واحتفل آلاف المصريين بافتتاحه في مايو ١٩٢٨.

من لطافة المصريين أن الفن كان مفتاح حشد الناس: حفلات أم كلثوم لدعم المجهود الحربي (وكانوا على سبيلِ رفعِ معنويات الضباط الجُدد يحرصون على وجود أم كلثوم قبل وزير الداخلية في حفلات التخرج بكلية الشرطة). قطار الرحمة الذي حمل عشرات النجوم في الخمسينيات، وتوقَّف في كل مدينة يجمع التبرعات. وفي أكتوبر انتشرت إعلانات عن مسرحية المليون مشاهد «مدرسة المشاغبين» بتخصيص إيراداتها للمساهمة في المعركة.

فن حتى في نقل الرسائل: كان المشير أحمد إسماعيل

يفتتح معرض غنائم الحرب، وتوافدت كاميرات العالم لرؤية حطام معدات العدو، وساعة الافتتاح أمسك المشير بالمقص، ثم استدعى جنديًّا بلا رتبة وطلب منه أن يقص الشريط، ووقف المشير خلفه بخطوة ليقول للعالم إن هذا الجندي هو البطل الحقيقي للانتصار.

فن حتى في علاج لعثمة الأطفال في الريف وتدريبهم على النطق السليم بترديد جمل صارت فلكلورًا مثل: «نزلت أدِب طلعت أدِب. طبق طبقنا طبق في طبأكو. خشب السقف خمس خشبات».

لا يعرف الواحد بالضبط متى تخلَّى المصريون عن اللطافة وتعلَّموا الرذالة (و«رَذَّل الشيءَ»: قبَّحه وجعله يستحق الاحتقار). وكان السادات أول مَن أشار إلى ذلك عندما اختار بيته الريفي مقرًّا بعيدًا عن القاهرة عاصمة الأفندية الأرذال ـ حسب تعبيره.

رفع المصريون «الكُلفة» (و«الكُلفة»: مديرة القصر الملكي التي تستقبل الضيوف أولًا قبل الملك، كبروتوكول لا تهاون فيه)، ورفعها يعني إسقاط مسافة ما بينك وبين الآخرين مليئة بالاعتبارات. ولا تجسيد لرفع «الكُلفة» حاليًّا مثل السوشيال ميديا، ولا علاقة لذلك بحرية الرأي، لكنها الرذالة!

الشخص المَرِح نعمة، وهو صاحب خيال يستطيع أن يكسر به سم العفريت نفسه. سألت في مرَّة أحد أساتذتي الكبار، إن كان يؤمن بفكرة «مصر ولَّادة»، فقال: «هي ولَّادة، لكن البطن قلَّابة». أعتقد أن مصر تغلَّبت على هذه الأزمة بأن أفرطت في الإنجاب، حتى يصبح لديها كَمٌّ كافٍ من الأبناء الصالحين القادرين على تصحيح مسار الصنف المضروب، لكن لخطأ تقني ما، يتعرض الطيبون لأخطار جسيمة طوال الوقت إذا فكروا في القيام بهذه المهمة. وعندك الموسيقي الراحل الذي سألته عن وجهة نظره في استحقاق عبد الوهاب للقب «موسيقار الأجيال»، فقال: «على الأقل تاريخيًّا، هذا رجل غنَّى في فرح مصطفى النحاس، ثم وقف مايسترو لنشيد «وطني حبيبي» أمام عبد الناصر، ومنحه السادات رتبة لواء ووقف يقود بها عزف «بلادي بلادي»، ثم تردَّد أن أجهزة الإعلام غيَّرت تاريخ وفاته من ٤ مايو إلى ٣ مايو حتى لا يتوافق مع يوم عيد ميلاد حسني مبارك الذي أمر له بجنازة عسكرية». وسأل أحدهم الشاعر مأمون الشناوي عقب سماعه خبر وفاة أم كلثوم: «الله يرحمها، كان عندها إيه؟»، فقال الشناوي: «كان عندها سبعة وسبعين سنة». وفي زلزال ١٩٩٢ سألوا نجيب محفوظ عما فعله عندما بدأت الهزة

وارتجفت الجدران، وكانت تسكن فوقه نجمة الإغراء برلنتي عبد الحميد، قال: «عندما لاحظت اهتزاز السقف ظللت جالسًا في انتظار اللحظة التي ستسقط فيها برلنتي في حجري».

هامش ١

هناك أكثر من حكاية عن لطافة المثقف الفنان، لطافة النقد تحديدًا، فعندما سُئل الكاتب الكبير يحيى حقي عن عيوب القارئ المصري، لم يرد إلا بحكاية، تاركًا للمستمع حرية تفسيرها، فقال: «كتبت مقالًا عن «الدماثة»، أمدحها وأشيد بها، إلا أن عامل المطبعة دون أن يقصد استبدل بكلمة «دماثة» كلمة «دمامة»، وعلى الرغم من ذلك لم تتوقف بعد النشر رسائل الإشادة والثناء».

وكانت الموضة عند ظهور مسرحية «مدرسة المشاغبين» التعامل معها كجريمة، وهاجت الأقلام تهاجم هذه الكارثة الأخلاقية الفنية وقتها، وكانت القيادة لوزير التعليم، ما عدا الكاتب الكبير أحمد بهجت، فقد قال عنها: «في المسرح الفكاهي لا بد أن تقع مبالغات، ومشكلة هذه المسرحية ليست فنية، ولكن مشكلتها ـ وما أزعج الناس ـ أنها تُعبِّر عن واقع

موجود في المدارس يجب التعامل معه، وتكشف بجرأة عن خلل لا يمكن تجاهل وجوده».

الأمر نفسه عندما ظهر أحمد عدوية، وكان الهجوم عليه دليلًا على رُقي ونبوغ المُهاجِم، وكُتبت فيه قصائد تُنهي مسيرته مبكرًا. الوحيد الذي تعامل مع التجربة برُقي حقيقي كان نجيب محفوظ، قائلًا: «أجد فيما يُغنيه كلامًا وأنغامًا تعجبني»، وقال إن عدوية أصدق من كثيرين، وإن صوته يشبه كل ما يحيط به من ظروف الحياة وشكل البيوت والشوارع. ليجعل محفوظ من التعالي على التجربة انفصالًا عن الواقع. وأنهى شهادته مخاطبًا المذيع الذي كان يسأله: «الغناء ليس هو ما يعجبني ويعجبك فقط، انظر إلى ما يعجب الملايين».

هامش ٢

قال الطبيب: «نظرك زاد نصف درجة». كنت أتوقع العكس وأنا أفتش عن علاج للزغللة. قلت للطبيب: «نظري يزداد قوة.. لا بد أنني أصغر في السن»، فقال: «بالعكس، معناها إنك كبرت وستحتاج إلى نظارة قراءة».

لاحظت في الفترة الأخيرة أنني أحتاج إلى خلع النظارة الطِّبية لقراءة رسائل المحمول بشكل أفضل، وضبطت نفسي أكرر الحركة التي كنت أسخر من جدتي بسببها: أن أُبعد ما أقرأه عن عيني حتى مستوى الخصر. تقع مني نقاط فوق الحروف،

وأدخل أحيانًا في متلازمة عبلة كامل «يا تس.. يا بس». ويختفي سطر الترجمة في الأفلام الأجنبية قبل أن ألحق بآخر كلمتين فأستعين بزوجتي. الروشتة الداخلية في علب الأدوية صارت مأساة، صارت قراءتها عملية معقدة، في البداية أُصوِّرها بكاميرا الموبايل، ثم أفتح الصورة وأُكبرها كلمة كلمة بالإصبعين. كنت أتعامل مع الأمر بصورة طبيعية، أُفسره كعادة المصريين بـ«ما فطرتش كويس»، ثم بدأت تظهر زغللة تشبه اللقطات التي تسبق فقدان البطل للذاكرة في الأفلام القديمة.

قال الطبيب: «تشريحيًّا كله تمام». لكنني كنت أعرف أنها رسائل ما بعد الأربعين الجديرة بالاهتمام، لأنها تُحدِّد شكل الحياة القادمة. أؤمن بمقولة الخواجة: «الشيخوخة الجيدة تبدأ في الشباب». وهو بالمناسبة القائل أيضًا: «الشباب يقفون خلف الثورات على الأنظمة، والشيوخ يقفون خلف استعادتها». المهم، كنت أحاول أن أطمئن نفسي بأنه لسه بدري، ولم ينتصف الطريق بعدُ، وما تبقَّى في قائمة الأحلام أضعاف ما تحقَّق، فلا تبالغ في استحضار الشيخوخة، وأنت في الغالب لن تستخدم هذه النظارة وستظل «مرمية» في الدولاب.

إلى أن ذهبت لاستلامها من محل بصريات بأحد المولات، وقررت بعدها بالمرَّة أن أشتري قطعتي ملابس، وهو ما لم أفعله منذ فترة، حتى إن إحدى القارئات في ندوة بالإسماعيلية سألتني: «ما سر القميص الأخضر والإسماعيلية؟». قلت: «لا أفهم». قالت: «أصلك كنت بنفس القميص هنا في ندوة

السنة اللي فاتت». فأكدت على زوجتي: «ما تسيبينيش أخرج من البيت بالقميص ده تاني». المهم، في أحد المحلات أعجبني قميص، وفي غرفة البروفات زارني هاجس أن القميص «مهزأني شوية»، فألوانه تليق بشاب عشريني متحرر، وستايل «السليم فت» يحتاج إلى جسد نحيل، والقميص يبدو أجمل كثيرًا وزراره العلوي مفتوح، وهذه لم تعد شخصيتي، لكنني أحببت القميص بشدة ونادرًا ما يعجبني شيء. صراع نفسي هائل بين احتمال «الأناقة الشبابية» واحتمال «قلة القيمة». قررت أن السعر سيحسم الأمر، سأتركه إذا كان غالي الثمن ويتجاوز رقمًا حدَّدته بيني وبين نفسي.

خلعت القميص، وسحبت التيكيت لأقرأ السعر، ولم يحسم الأمر ما قرأته، ولكن ما حسمه بالنسبة إليَّ أنني لم أستطع قراءته إلا بالنظارة الجديدة.

إهداء.. إلى «بيتر»

بيتر يكبرني بعامين، وكانت أمه تسير على نهج شائع في بعض البيوت القبطية وقتها: تحريم جهاز التلفزيون، أو على الأقل، وجوده في البيت. إلا أن والده وضع الجميع أمام الأمر الواقع، واشترى جهازًا مستعملًا «أبيض وإسود»، وخبَّأه عند شقيقه، ثم قرر أن يُحضره ويُشغله في يوم «يكون أجازة»، حيث الأجواء العائلية ألطف وأكثر هدوءًا، تحسبًا لأي مشاكل.

استقبلت الأم دخول الأب بالجهاز وهي غير مُصدِّقة، وظلت صامتة، بينما الأب بمعاونة بيتر يضبط كل شيء. حتى ظهرت صورة. جلس الأب على كرسي الصالة الواسع، وجلس بيتر أرضًا وكانت فرحته عظيمة، خصوصًا والتلفزيون يذيع استعراضات عسكرية حماسية ومبهرة

لطوابير الجيش والمركبات وتشكيلات الطائرات، ثم حدث ارتباك ما في المشهد مصحوب بصوت طلقات رصاص. انقطع الإرسال، وبدأ التلفزيون يذيع تلاوات قرآنية. يقول بيتر: «بدأت أمي تبكي، ورأيتها وهي تلملم في حقيبة قديمة بعض الأشياء وتستعد للانصراف، في الوقت الذي سُمع فيه صياح الجار «قتلوا السادات.. قتلوا السادات»».

يقول بيتر: «دفع السادات ثمن عدم رضا أمي، وكنت أعتقد أن الموضوع قد توقَّف عند هذه النقطة. بيت سيِّئ الحظ، دخله التلفزيون للمرَّة الأولى يوم اغتيال رئيس الجمهورية، بما يعني أنه لا أفلام ولا مباريات ولا أغاني لفترة لا يعلمها إلا الله. لكن أمي قبل أن تخرج وقفت عند الباب في انتظار أن يجري أبي خلفها ويراضيها، وهو ما لم يكن أبي ليفعله، لأنه كان قد تُوفِّي في مكانه، ربما قبل السادات».

دخلتِ أم بيتر جمعية بثمن التلفزيون، ولم تكن هناك فرصة لمناقشة فكرة وجود تلفزيون في البيت حتى وقت آخر، قدَّره بيتر وقتها بأنه إلى الأبد.

اتجه بيتر إلى الصحف، يأخذ مصروفه لشراء ساندويتشين طعمية، فيشتري واحدًا، وبثمن الآخر يشتري جريدة تتغير كل يوم. كان يقص من الجريدة الأخبار

المهمة والطريفة، ويلصقها بالصمغ في دفتر تموين كبير سرقه من محل خاله. ومع الوقت صار يُكوِّن ألبومات لقصاصات الصحف. كان النسخة المتحركة من برنامج «أقوال الصحف». اكتشفناه ـ وكان اكتشافًا حقًّا ـ في المدرسة الإعدادية. كان فاكهة وقت الفسحة. حتى انتقل إلى الثانوي، فصرنا نمر عليه كل يومين، وننتظره أمام شقته الموجودة في الطابق الأرضي، حتى يخرج لنا من الشرفة الضيقة بالدفتر لنتفحصه معًا.

تتبعنا معه قصة اغتصاب «فتاة المعادي» التي شغلت مصر، لكونها جريمة من نوع غريب وغير شائع في مصر. كنا في حاجة أصلًا لمن يشرح لنا معنى كلمة «اغتصاب». شرحها لنا بيتر، ثم أخذ يوافينا بالقصة وتطوراتها. لم نعرف للضحية اسمًا سوى «فتاة المعادي»، اسمها الحقيقي مُنع نشره لحمايتها من المتطفلين. ولاحظ بيتر أنه حتى الحوار الصحفي الوحيد الذي نُشر معها في «أخبار اليوم» لم يحمل توقيع الصحفي الذي أجراه.

تابعنا معه قصة المجند سليمان خاطر، عسكري الحدود الذي قتل ستة إسرائيليين في سيناء، من بدايتها، مرورًا بكل تفاصيلها، حتى نُشر خبر انتحار خاطر في الصفحات الأولى.

تابعنا معه خناقة محمود الجوهري وصالح سليم، وحبس سعيد صالح لخروجه عن النص، ومأساة الجفاف في أفريقيا، وقضية بليغ حمدي، وإطلاق قناة تلفزيون جديدة لأهل العاصمة فقط (القناة الثالثة).

كانت مقابلة بيتر ملهمة دائمًا. تعلَّمت منه فكرة المراقبة، والتأمل، وربط الأحداث. وكنت كثيرًا ما أعرض عليه قصاصات اخترتها بنفسي من صحف الأب، فيتأملها، وإذا ما أعجبه شيء كان يُعلِّق بـ: «لا بأس».

كان حاضرًا في ذهني طوال العمل في هذا الكتاب. بيتر الذي ساعده الحرمان من التلفزيون على اختراع طريقة للبقاء على اتصال بالعالم.

بعد وفاة والدته طلب منه خاله أن ينتقل للإقامة معه. قلنا له على سبيل الطبطبة: «خالك عنده تلفزيون». قال: «تلفزيون خالي موجود في غرفة نومه، ويسمح لأبنائه بالدخول على مزاجه، فما بالك بالغريب! بخلاف أن مراته قوقة ولا تحبني».

طلب صاحب العمارة استعادة الشقة، وعرض مبلغًا رأى الخال أنه سيساعد بيتر عند الالتحاق بالجامعة. عرضت أنا وصديق أن نساعده يوم «العزال» في نقل أشيائه، ودخلت غرفته للمرَّة الأولى.

غرفة صغيرة، اختلط لون الجدار الأبيض فيها بطلاء قديم أسفله يميل إلى الأزرق، وفي كل الأركان رصة جرائد تكاد تقترب من منتصف الحائط، رصة «الأهرام» و«الأخبار» و«المساء» حتى جريدة «الزمالك» و«صوت سوهاج». وفي أحد الأركان منضدة خشبية بُنية اللون، رُصت فوقها دفاتر المختارات الصحفية، وعلب الصمغ الشفافة، وأباجورة صدئة بلمبة كبيرة، ومسطرة كبيرة، وطبق بلاستيك به أمواس كاتر. وفي مواجهة المكتب صورة متآكلة الأطراف للقديس «مار جرجس» فوق حصانه، مثبت في نهايتها صورة ٦ في ٩ للأم، وأسفل الصورة مكتوب على الحائط بخط اليد: «فَإِنَّهُ هكَذَا كَانَتْ قَدِيمًا النِّسَاءُ القِدِّيسَاتُ أيضًا الْمُتَوَكِّلاتُ عَلَى اللهِ».

لم تكن مجرد غرفة، كانت محرابًا.

التحق بيتر بإحدى الكليات النظرية، وأصبح أستاذًا بها. هاتفته أستأذنه في نشر القصة، فوافق. سألته إن كان يمتلك جهاز تلفزيون الآن. قال: «عندي واحد لكنه محتل، نادرًا ما أستطيع أن أقتنص الريموت كنترول من يد أربعة أطفال وزوجة، ولو حدث فلوقت محدود، وهذا أمر مريح نفسيًّا بالنسبة إليَّ، فأنا أخاف إن أخذت راحتي وتمدَّدت أمام جهاز تلفزيون أن ألقى مصير أبي».

قبل إنهاء المحادثة طلب مني ألَّا أذكر اسمه، وأن أستخدم اسمًا حركيًّا، بشرط أن يكون «اسمًا مسيحيًّا». قلت له «ما رأيك في شنودة؟». قال: «مباشر أوي». قلت له: «بيتر؟!». قال: «لا بأس».

مصادر

كل الشكر والتقدير للأساتذة والزملاء الذين كانت أعمالهم الفكرية والبحثية شريكًا أساسيًّا في بطولة هذا الكُتيب.

إبراهيم أحمد شعلان. موسوعة الأمثال الشعبية المصرية والتعبيرات السائرة. القاهرة: دار الآفاق العربية، ٢٠٠٣.

إبراهيم عبد العزيز. ليالي نجيب محفوظ في شبرد. القاهرة: بتانة للنشر والتوزيع، ٢٠١٧.

ابن بطوطة. رحلة ابن بطوطة: المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٧.

ابن ظهيرة. الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة. القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٩.

أحمد أمين. قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية. القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٠.

أحمد الحضري. تاريخ السينما في مصر. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧.

أحمد مصطفى. حادث المنصة وأحاديث مع وزراء الداخلية. القاهرة: دار المعارف، ٢٠١٢.

أرتيميس كوبر. القاهرة في الحرب العالمية الثانية: ١٩٣٩-١٩٤٥. ترجمة: محمد الخولي. القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦.

أشرف عزيز. الكنايات العامية المصرية. القاهرة: الحضارة للنشر، ٢٠٠٧.

اعتدال ممتاز. مذكرات رقيبة سينما. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥.

إلهام محمد السيد عفيفي. معركة بناء السد العالي وتأثيره الاقتصادي: ١٩٥٢-١٩٨٧. القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٩.

آمال العمدة. صحبة وأنا معهم. أربعة أجزاء. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢-٢٠٠٩.

آمال العمدة. عقدتي. القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٨.

أمل فهمي. أمراء الأسرة المالكة ودورهم في الحياة المصرية: ١٨٨٢-١٩٢٨. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦.

آمنة حجازي. الجريمة في مصر: ١٩١٩- ١٩٣٩. القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠١٤.

آن وولف. كم تبعد القاهرة؟ترجمة: قاسم عبده قاسم. القاهرة: المشروع القومي للترجمة، ٢٠٠٦.

أنور السادات. أسرار الثورة المصرية: بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية. القاهرة: دار الهلال، ١٩٥٧.

إيريس نظمي. مذكرات عماد حمدي أشهر فتى شاشة. القاهرة: دار أخبار اليوم، ١٩٨٤.

باتريك أورشادنيك. أوروبيانا: مختصر تاريخ القرن العشرين. ترجمة: خالد البلتاجي. القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، ٢٠١٤.

جاستون فييت. القاهرة مدينة الفن والتجارة. ترجمة مصطفى العبادي. القاهرة: دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٨.

جمال الغيطاني. ملامح القاهرة في ألف سنة. القاهرة: دار نهضة مصر، ٢٠٠٧.

جون لويس بوركهارت. العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية في عهد محمد علي. ترجمة: إبراهيم أحمد شعلان. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩.

جيمس كلير. العادات الذرية: منهج سهل لبناء عادات جيدة والتخلص من العادات السيئة. ترجمة: محمد فتحي خضر. بيروت، القاهرة، تونس: منشورات الرمل، دار التنوير، ٢٠١٩.

حافظ علي أحمد سلامة. ملحمة السويس في حرب العاشر من رمضان: حقائق ووثائق للعبرة والتاريخ. القاهرة: د.ن، ٢٠٠١.

حافظ محمود. حكايات صحفية. القاهرة: كتاب اليوم، ١٩٨٤.

حامد حسب. السويس: تجربة مدينة. القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١٠.

حسين العشي. خفايا حصار السويس: مائة يوم مجهولة من حرب أكتوبر ١٩٧٣. القاهرة: دار الحرية، ١٩٩٠.

حسين فوزي. سندباد مصري: جولة في رحاب التاريخ. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧.

حمدي البطران. مصر بين الرحالة والمؤرخين. القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٩.

خالد فهمي. كل رجال الباشا: محمد علي وجيشه وبناء مصر الحديثة. القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١.

رزق حسن نوري. تجار القاهرة في عصر محمد علي: ١٨٠٥-١٨٤٨. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٨.

روبير سوليه. قاموس عاشق لمصر. ترجمة: عادل أسعد الميري. القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٢.

زينب عبد الرزاق. فاتن حمامة. القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٦.

سامح كريم. العقاد في معاركه السياسية. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠.

سعيد الشحات. ذات يوم: يوميات ألف عام... وأكثر. مجلدان. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥-٢٠١٧.

سعيد هارون عاشور. أخبار المصريين في القرن العشرين. أربعة أجزاء. القاهرة: مكتبة الآداب، ٢٠٠٧-٢٠١٠.

سليم حسن. حكمة المصريين القدماء. القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠١٨.

سميح عبد الغفار شعلان. الخبز في المأثورات الشعبية: دراسة في الأطالس الفولكلورية. القاهرة: دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٢.

سميحة أيوب. ذكرياتي. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٧.

سناء البيسي. سيرة الحبايب: ٥٥ شخصية من قلب مصر. القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩.

شوقي ضيف. الفكاهة في مصر. القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٩.

الصاوي حبيب. مذكرات طبيب عبد الناصر. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧.

صلاح عيسى. سلامي عليك يا زمان. القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠١٩.

طارق حبيب. ملك وثلاثة رؤساء: شهادات واعترافات أكثر من ٧٠ شخصية ارتبطت بحكام مصر. القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٠.

طارق الشناوي. أنا والعذاب وأم كلثوم: مذكرات محمود الشريف. القاهرة: دار الحياة ودار الفرسان، ٢٠٠٥.

طارق رضوان. عام الحسم: السادات والناس ـ مصر ٧١. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥.

طارق الطاهر. ملحمة الدم والحبر: «الأخبار» دفتر أحوال المصريين في أكتوبر ١٩٧٣. القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١٩.

طارق الطاهر. نجيب محفوظ بختم النسر. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٩.

طايع الديب. جمهورية الضحك الأولى: سيرة التنكيت السياسي في مصر. القاهرة: بتانة للنشر والتوزيع، ٢٠١٩.

عباس متولي. صوت العرب: الإذاعة التي قوضت أركان الاستعمار. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٩.

عبد الرحمن الرافعي. ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢: تاريخنا القومي في سبع سنوات ١٩٥٢-١٩٥٩. القاهرة: دار المعارف، ٢٠١٨.

عبد الرحمن فهمي. حكايات رياضية. القاهرة: دار أخبار اليوم، ١٩٩٨.

عبد اللطيف المناوي. الأيام الأخيرة لنظام مبارك. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠١٢.

عبد الله أحمد عبد الله (ميكي ماوس). ٦٠ سنة سينما. القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٨.

عبد الله إمام. جيهان: سيدة مصر الأولى والأخيرة. القاهرة: روز اليوسف، ١٩٨٥.

عبد الوهاب بكر. الجريمة في مصر في النصف الأول من القرن العشرين ـ الشوارع الخلفية. القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠١٢.

علماء الحملة الفرنسية. موسوعة وصف مصر. ٣٧ جزءًا، ٣٥ مجلدًا. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢-٢٠٠٥.

علي متولي أحمد. مصر ١٩٥٦: التأميم والعدوان والانتصار. القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠١٨.

عمر بطيشة. ذكرياتي مع نجوم الأغاني. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٨.

عمر بطيشة. شاهد على العصر. القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب، ١٩٩٤.

عمرو عبد العزيز. الأساطير المتعلقة بمصر في كتابات المؤرخين المسلمين. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢.

عمرو عبد العزيز. ثورات مصر الشعبية. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥.

عمرو فتحي. موسوعة أغاني عبد الحليم حافظ. القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠١٩.

فاروق فهمي. هيكل وعبد الناصر. القاهرة: مؤسسة آمون، ١٩٨٧.

فتحي غانم. معركة بين الدولة والمثقفين. القاهرة: دار أخبار اليوم، ١٩٩٥.

فلاديمير فينوجرادوف. مصر من ناصر إلى حرب أكتوبر. ترجمة: أنور محمد إبراهيم. القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦.

فيلهلم شيبتا. حكايات شعبية مصرية. تحقيق ودراسة: مصطفى ماهر. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٣.

كريم ثابت. طلاق إمبراطورة: طلاق شاه إيران والإمبراطورة فوزية ـ القصة الكاملة والأسرار الخفية. القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥.

ماركوس توليوس شيشرون. في مديح الشيخوخة. ترجمة: فتحي أبو رفيعة. القاهرة: بتانة للنشر والتوزيع، ٢٠١٧.

مؤلفون. وماذا بعد حرب أكتوبر؟ القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٤.

ماهر زهدي. سيد مكاوي: صانع البهجة. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٩.

مجدي نجيب. من صندوق الموسيقى: زمن الغناء الجميل. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١.

محمد أبو العلا. الألغاز الشعبية في محافظة الدقهلية. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥.

محمد أحمد غنيم. العادات والتقاليد في دلتا مصر. القاهرة: دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٥.

محمد التابعي. ألوان من القصص. القاهرة: دار الهلال، ١٩٧١.

محمد توفيق. الملك والكتابة: قصة الصحافة والسلطة في مصر. شبين الكوم: دار دلتا للنشر والتوزيع، ٢٠١٧.

محمد الجوهري. معجم لغة الحياة اليومية. القاهرة: المكتبة الأكاديمية، ٢٠٠٧.

محمد حسنين هيكل. بين الصحافة والسياسة. القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣.

محمد داود التنير. ألفاظ عامية فصيحة. القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨.

محمد سلماوي. قالوالي. القاهرة: دار المعارف، ٢٠١٤.

محمد شعير. أولاد حارتنا: سيرة الرواية المحرمة. القاهرة: دار العين للنشر، ٢٠١٨.

محمد عبد المقصود. حواديت الأمثال العامية. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢.

محمد فوزي. حرب الثلاث سنوات: ١٩٦٧-١٩٧٠. القاهرة: الكرمة للنشر: ٢٠١٦.

محمود جامع. عرفت السادات. القاهرة: المكتب المصري الحديث، ٢٠٠٤.

محمود الحويري. مصر في العصور الوسطى. القاهرة: دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٣.

محمود عوض. شخصيات. القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٨.

مرتضى المراغي. شاهد على حكم فاروق. القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠٧.

مصطفى محرم. حياتي في السينما. خمسة أجزاء. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٣-٢٠١٨.

مفيد فوزي. نصيبي من الحياة. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠١٣.

ممدوح حامد عطية. بورسعيد: بطولة جيش وصمود شعب. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٨.

نادية صالح. زيارة لمكتبة فلان. القاهرة: دار أخبار اليوم، ١٩٩٨.

ناصر عبد الله عثمان (إعداد). السلطة وعرض حالات المظلومين من عصر محمد علي: ١٨٢٠-١٨٢٣. القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٩.

نعمات أحمد فؤاد. شخصية مصر. القاهرة: دار نهضة مصر، ٢٠١٤.

نعمان عاشور. بطولات مصرية. القاهرة: روز اليوسف، ١٩٧٣.

هِرُدوت. هِرُدوت يتحدث عن مصر. ترجمة: محمد صقر خفاجة. القاهرة: دار القلم، ١٩٦٦.

وينفريد بلاكمان. الناس في صعيد مصر: العادات والتقاليد. ترجمة: أحمد محمود. القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٠.

ياسر ثابت. فيلم مصري طويل. القاهرة: مركز الحضارة العربية للإعلام، ٢٠١٠.

يونان لبيب رزق. «الأهرام»: ديوان الحياة المعاصرة. القاهرة: وكالة الأهرام للتوزيع، ١٩٩٨.

يونان لبيب رزق. شئون وشجون تاريخية. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥.

شكر

نجلاء بدير
عاليا عبد الرؤوف
نورا ناجي
محمد هشام عبية

عن الكاتب

مواليد صعيد مصر في منتصف السبعينيات. صدر له عدة كتب من بينها: رواية «كحل وحبهان»، «صنايعية مصر.. مشاهد من حياة بعض بناة مصر في العصر الحديث»، «أثر النبي ـ قصص قصيرة من وحي السيرة»، «إذاعة الأغاني ـ سيرة شخصية للغناء»، «كتاب المواصلات.. حكايات شخصية لقتل الوقت»، «بالقرب من نهر بيدرا جلست وبكيت ـ ترجمة لرواية باولو كويلو»، «شكلها باظت ـ ألبوم اجتماعي ساخر»، «زملكاوي ـ ألبوم مئوية الجماهير»، «جر ناعم ـ ألبوم القصص والشعر»، «نظرية برما».

كتب للسينما عدة أفلام من بينها: «طير إنت»، «يوم مالوش لازمة»، «كابتن مصر».

أصدر عدة دواوين شعرية من بينها: «وضع مُحرج»، «قهوة وشيكولاتة»، «مشوار لحد الحيطة»، «عرفوه بالحزن».

كتب أغنيات لكثيرين من بينهم: أصالة، رامي صبري، أحمد عدوية، كايروكي، سعاد ماسي، أحمد سعد، محمد عساف، عزيز الشافعي.

قدَّم عدة برامج إذاعية من بينها: «واحد صاحبي»، «الطريق إلى عابدين»، «شفت ربنا؟».

قدَّم عدة برامج تلفزيونية من بينها: «كلام جرايد - ٢٠٠٥»، «مصري أصلي - ٢٠١٠»، «اتجنن مع كوكاكولا - ٢٠١٣»، الحلقات الوثائقية «وصفوا لي الصبر: عن الكتابة وأهلها - ٢٠١٨».

كتب للتلفزيون مسلسل الكارتون «سوبر هنيدي».

حصل على عدة جوائز من بينها: جائزة أفضل كاتب مقال في ٢٠١٥ في استفتاء مجلة «الشباب». وحصل كتابه «إذاعة الأغاني» على جائزة أفضل كتاب في ٢٠١٥ في استفتاء المكتبات والقرَّاء.

يُقدِّم الكاتب الشكر مُسبقًا على أي ملاحظات أو تصويبات
أو تعليقات

omertaher@yahoo.com

مكتبة آدم
t.me/AdamLibrary